سفينة النجاة

تأليف

علي رفاعي
مفتش الوعظ العام بالأزهر الشريف

الطبعة الأولى
شهر رجب سنة ١٣٧٠

obeikandl.com

obeikandl.com

إهـــداء

إلى الذين يريدون النجاة من هموم الدنيا والآخرة .

إلى الذين يطلبون السعادة والفلاح .

إلى الذين يريدون متعة النفس وسرور القلب .

إلى المحزونين والمكروبين الذين ينتظرون الفرج القريب .

إلى كل هؤلاء وغيرهم .

أُهدى هـذا الكتاب الذى طابق اسمه مسماه فهو بحق « سفينة النجاة » .

المؤلف

على رفاعى

obeikandi.com

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

« رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ » .

أحمدك ربى على جليل نعمك ، وعظيم فضلك ، وكثرة خيرك ، ووفرة برك ، وضّحت سبيل النجاة لمن يريدها ، وأقمت الأدلة على انفرادك بالعظمة والقدرة ، ونصبت الشواهد على أن الأمر منك و إليك وأنك بالعباد رؤوف رحيم ، وأرسلت للناس رسولاً كريماً دعا العباد إلى طاعتك ، والعمل بما يرضيك ، فأضاءت رسالته المشارق والمغارب وانتشر بها نور السلام والإسلام ، واستظل بظل عدلها ورحمتها وخيرها جميع الأنام ، من سار على ضوئها واهتدى بها سعد فى دينه ودنياه وكان من الفائزين . فصلواتك ربى وسلامك وتحياتك و بركاتك على سيد الوجود سيدنا ومولانا محمد بن عبد الله من أرسلته للعالمين بشيراً ونذيراً وجعلته سراجاً يضىء الطريق للسالكين وقمراً منيراً .

و بعد . فقد استقبل المسلمون فى كل مكان كتبى الثلاث (غذاء الأرواح — ومحاسن الإسلام — وكيف تكون خطيباً) استقبالاً كريماً

مما اضطرنى إلى إعادة طبعها غير مرة فى عام واحد ، وقد وعدت بإخراج كتاب جديد وها أنا أفى بما وعدت مستعيناً بحول الله وقوته مستمداً منه سبحانه التوفيق ، مستلهماً الإخلاص ، وهذا الكتاب الجديد سميته « سفينة النجاة » رجاء أن يشملنى الله برحمته فيجعلنى من الناجين الفائزين .

وسيرى المطلع عليه أننى تخيرت له ما يشرح الصدر و يطمئن النفس ويزيل الهموم ، ويفرح المحزون ويفتح أمامه باب الأمل ، ويحضه على العمل ، ويدفعه إلى حب الحياة والتمتع بمباهجها فى حدود مارسم الله تعالى .

كل ذلك فى أسلوب سهل وعبارة أنيقة وألفاظ رشيقة كما سيرى القارئ الكريم نبذاً من أخبار الصالحين نسوقها عظة للمؤمنين ، وذكرى للمتقين — والله أسأل أن ينفع به وأن يجعله ذخيرة لى يوم الدين — يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

ونبدأ الكتاب تبركا بكلمة عن :

مولد النور

بميلاد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم انتشر نور الحياة فى جزيرة العرب ، وأضاء الله به المشارق والمغارب ، وأحيي به أمة خيّم على ربوعها الفناء ، وأطبق على أهلها ظلام الجهل ، فهى والأنعام سواء ، ومن أراد أن يعرف ذلك تمام المعرفة ، فلينظر إلى ما كان عليه شبه جزيرة

العرب قبل بعثة من أرسله الله سراجاً يضيء وقمراً ينير طريق النجاة للسالكين ، يرى أن القوم كانوا فى عماء ليس بعده عماء ، وجهالة ليس بعدها جهالة ، عقول كليلة ، ونفوس مريضة ، امتطت الشر وركبت الفساد ، الجفاء فيهم طبيعة ، والغلظة فى أحوالهم غريزة ، يرون الشجاعة فى السفك والسلب ، واعتداء الأقوياء على الضعاف ، لا تربطهم وحدة سياسية ، ولا تجمعهم رابطة دينية ، ولا يردعهم عن فعل القبيح قانون ، ولا يعصمهم عن الوقوع فى الدنايا خلق ، فهم كما قال الله فيهم « أُولٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ » .

حرموا نعمة النظر فى مصنوعات الله ليؤمنوا بصانعها فالدين عندهم هواء ، ينحتون الأصنام بأيديهم ، ويتخذونها أرباباً تعبد من دون الله ، يعتقدون فيها النفع والضر ، ويقدمون لها القرابين والهدايا ، ويخلصون لها التقديس والتعظيم ، وليست الأصنام عندهم واحدة ، بل لكل قبيلة صنمها ومعبودها ، وبلغ من تعلقهم بها ، أن الرجل منهم كان إذا رغب فى السفر حرص على أن يصحب معه صنما صغيراً يماثل صنم قبيلته ليضرع إليه فى حاجاته ، ويستمد منه المعونة فى تحقيق رغباته ، وعجب ما يروى من سفاهة عقولهم وانحطاط تفكيرهم أن بعضهم كان يتخذ إلهه من الحلوى فإذا جاع أكله ، فعل يدل على طمس البصيرة وانعدام التفكير وركوب الأهواء وتقليد الآباء « وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ » وكانوا مع ذلك فى عقائدهم أصنافاً شتى ، فمنهم من

أنكر وجود الخالق وجحد البعث والنشور والإعادة ، وقالوا « مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهر » ومنهم من اعترف بالخالق وبابتداء الخلق وأنكر البعث والإعادة ، وفرقاً أنكروا الرسل واستبعدوا أن يبعث الله بشراً رسولا وعبدوا الأوثان والأصنام وزعموا أنها تقربهم من الله زلفى — وجمهرة العرب كانوا من هذا الصنف — وقليل منهم كان يميل إلى اليهودية والنصرانية وبعضهم كان يعبد الملائكة ، ويعتقد أنهم بنات الله ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

ذلك موجز حالهم الدينية . أما حالتهم السياسية فلا تحزن عدواً ولا تسر صديقاً ، فقد كانوا أذلاء مستضعفين لدولتى الروم والفرس . وكانت قوانينهم ما اصطلحت عليه كل قبيلة ، أو ما رآه زعيمها من حسن وقبيح ، فالحسن ما يحسنه والقبيح ما يقبحه ، لا يرون جريمة فى وَأْد البنات ، ولا يأنف المرء منهم أن ينكح زوجة أبيه ، أو يجمع بين أختين على فراشه .

فى هذا الظلام الحالك والليل البهيم ؛ بعث الله نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم فأضاء ببعثته القلوب ، وأشرق عليها نور الهداية ، فبدل جفاءها مودة ، وغلظتها رقة ورحمة ، وجهلها علما وحكمة ، وذلها عزا ومجدا .

لقد جاء ميلاده وسط هذه الغياهب بما سبقه من إرهاصات وبشارات ، إيذاناً بعهد جديد ، لا تتغير على صفحته تيارات الخلق برسوم

من القوة والعظمة ، عُصِمت بها العقيدة ، وانتقل بها الفكر من الأحجار إلى بارئها ، وارتفع البصر من الأرض إلى السماء ، يتلقف منها حل قضيته . لئن كتب المؤرخون وأكثروا وأطالوا البحث عن عظيم يكشفون للعالم ما استتر من نواحى عظمته فى قيادته لشعبه وتغلبه على سيئ عاداته ، أو عظيم فى فلسفته يشق بالناس طريقا إلى ما وراء المشاهدات ، أوعظيم فى شخصيته التى تقهر من بَعُد ، وتغلب على العقول والقلوب من قَرُب ، أو عظيم فى نشأته وتكوينه ، تحوطه العجائب إلى غير ذلك مما يعنى به النقاد الوازنون للأشخاص والأعمال ، فأنى لهم أن يكتبوا عن هذه الشخصية التى طالما وضعها الباحثون من أهل الشرق والغرب أمام مناظيرهم ، حتى إذا وصلوا إلى ناحية زعموها مجددة لعظمته أشرق شعاع آخر من ناحية أخرى ليست فى حسابهم ، فأرجعتهم القهقرى وقد أحسوا بأنهم لم يصلوا إلى الغاية مما ينشدون .

قائد جمع الشتات ورسم الهدف ووضحه لكل ذى بصيرة . إنه أستاذ البشرية على اختلاف طبقاتها وتنوع مذاهبها عن طريق إحياء الفضيلة التى وضعها العالم قبله تحت الأقدام : « إنما بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكارِمَ الأخلاق » .

ولم ينل هذا بكلمة واعظة أو صدقة مبذولة ، بل ناله ببذل الوقت وتكريس الجهد ، واستطاع بهذا الثمن أن يجمع من حوله هؤلاء النفر من صناديد الكفر إلى هداة وغزاة في سبيل الله يضحون بأنفسهم

وأموالهم فى نشر فضائل الإسلام ، تدرج بهم على هدى القرآن فى الأدب العالى « فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ » . « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ » . « وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ » ، حتى فاجأوا كسرى على عرش عظمته وهم فى خشونة الملبس وزهادة العيش بكلمة الحق جريئة حكيمة « أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرّتين » فعبدوا الله مخلصين له الدين ، وعاملوا الخلق غير عادين ولا غاشين ، فملكوا الدنيا زاهدين فيها والآخرة عن طريق الدنيا ، وتركوا لنا من بعدهم ميراثا يفنى الزمان ولا يفنى « فَآتَاهُمُ اللهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ » .

فمن كمولانا الكريم أصلاً ونشأة ، ومن مثله حياة تزخر بالخير وسط شرور قاصمه ، ومن يدانيه فى يُتْم توّجه الاتزان وزانه الأدب ، وعهدنا بالأيتام الإهمال والضياع ، أو الدلال وفساد الحال ، ومن كيتيم عبد الله رزانة وعقلاً ، حتى لم تؤخذ عليه هفوة يعيّر بها ، أو زلة لسان أو عثرة قدم تنقص مكانته « الله أعلم حيث يجعل رسالته » .

أسعدوا أقلامكم وأفكاركم أيها الكاتبون حين تزجون بها فى حياة هذا المولود الذى سعد به العالم ، إذ أطلق العقول بعد ما قيدتها الأديان الباطلة بالأوهام والأضاليل « إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ »

وحرّر الطغام من قيود الاستعباد فى الأموال والرقاب ، فأعطى كل امرئ حقه فى حياته يرسم لنفسه ما يشاء من مسالك بحيث لا يضر

غيره « يَأَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالاً طَيِّبًا » . « يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا » . « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ » حتى خلع عن نفسه الحول والقوة ونزل إلى الناس واحداً منهم يقول كما أمره مولاه : « إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِد . فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدا » .

لقد كان مولد النور والهدى لمن أراد النور والهدى ، ولنرجع قبل ألف وثلثمائة وثلاث وثمانين سنة ، كى نقف معه وسط العالم المتخبط لنجعله أستاذا مرشدا فى ظروف شاهَ فيها وجه الحق وأصبح الزور والطغيان عند الأمم قانوناً ، بل ودينا .

إننا إن فعلنا وحاولنا الخلاص فلابد واصلون : « وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِين » ، فإن من حمله الرسالة وسلمه القيادة قال : « يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرا ، وَدَاعِيًا إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرا » .

هذا النبى الكريم والرسول العظيم شهد بعظمته ونبل رسالته جمهرة من فلاسفة الغرب الذين لم يمنعهم من قول الحق وشهادة الصدق أنهم على غير دينه . من هؤلاء المنصفين الفيلسوف الطائر الصيت توماس

كارليل فى كتابه (الأبطال) فقد قال فيه ما نصه : (لقد أصبح من العار على أى فرد متمدن من أبناء هذا العصر أن يصغى إلى ما يظن من أن دين الإسلام كذب . وأن محمداً خداع ومزور . وآن أن نحارب ما يشاع من مثل هذه الأقوال السخيفة المخجلة . فإن الرسالة التى أداها ذلك الرسول ما زالت السراج المنير مدة اثنى عشر قرناً لنحو مائتى مليون من الناس خلقهم الله الذى خلقنا .

أفكان أحدكم يظن أن هذه أكذوبة وخدعة . أما أنا فلا أستطيع أن أرى هذا الرأى أبداً ولو كان الكذب والفسق يروجان عند خلق الله هذا الرواج . ويصادفان منهم مثل ذلك التصديق فما الناس إلا بله ومجانين . وما الحياة إلا سخف وعبث وأضلولة حرىٌّ بها أن لا تخلق) . وقال أيضاً فى الكتاب ذاته (ولقد جاء الإسلام على تلك الملل الكاذبة والنحل الباطلة فابتلعها وحق له أن يبتلعها لأنه حقيقة خارجة من قلب الطبيعة . وما كاد يظهر الإسلام حتى احترقت فيه وثنيات العرب وجدليات النصرانية . وكل ما لم يكن بحق فإنه حطب ميت أكلته نار الإسلام فذهب والنار لم تذهب .

وقال فى ختام كلامه :

(لقد أخرج الله العرب بالإسلام من الظلمات إلى النور وأحى به من العرب أمة هامدة فقيرة تجوب الفلاة منذ بدء العالم لا يسمع لها صوت ولا تحس منها حركة . فأرسل الله لهم نبياً بكلمة من لدنه ،

ورسالة من قبله . فإذا الخمول قداستحال شهرة والغموض نباهة . والضعة رفعة . والضعف قوة . والشرارة حريقا ، وسع نوره الأنحاء وعم ضوءه الأرجاء . وعقد شعاعه الشمال بالجنوب والمشرق بالمغرب) .

فما أسعدنا — معشر المسلمين — بميلاد سيد الوجود صلى الله عليه وسلم بل ما أسعد العالم كله برسالته التى حققت الهناء للبشر ورسمت طريق النجاة . وحددت واجب الإنسان نحو نفسه وأمته والناس أجمعين و بينت رسالته صلى الله عليه وسلم أن لكل مخلوق رسالة ووضحت طريق القيام بها . ليسعد المجتمع بتضامن أفراده . ويهنأ الفرد فى ظل الجماعة و إذا كان لكل إنسان رسالة فما هى :

رسالة الحياة وكيف تؤدى

خلق الله الكون على أبدع نظام . وأدق صنع . حير الأفهام . ودوخ العقول . فالأفهام تقف دونه حائرة ، والعقول تخر بين يديه ساجدة فالسماء والأرض وما بينهما . والشمس والقمر والنجوم كل يؤدى وظيفته فى الحياة على نظام ثابت يوصل إلى غاية عظيمة ليس وراءها من مزيد . هذه المخلوقات لها رسالة خلقها الله لها فهى تؤديها على أتم وجه . دون توقف أو اصطدام « وَالشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ، ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ، وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ، لا الشَّمْسُ يَنْبَغِى لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارَ » . وكل فى فلك

يسبحون — هذا الكون الذى خلقه الله على تلك الصورة ، وهذا النظام البديع سخره للإنسان وناط به عمارته والجد والدأب والعمل فيه . ليحيا حياة النعيم والسعادة وقد رَغَّب الله العباد وحثهم على التفكير فى الأرض والسماء والهواء والماء . لاستنباط مايسعد البشر ويرقى بالإنسان إلى مراقى الكمال والنجاح والفلاح . فرسالة الإنسان فى الحياة رسالة عظيمة لايدرك عظمتها إلا من يعرف مقدار النعمة التى أنعم الله بها عليه . فهو خلق عظيم استمد عظمته من عظمة خالقه الذى دعاه فلبى وأمره فأطاع . فسار على نظام العبودية الحقة . وسبح فى فلك الطاعة لا يريم عنه ولا يتحول كما أن الشمس والقمر كل فى فلك يسبحون . فيؤدى رسالته فى الحياة فى ظل هذه العبودية فيقوم بما كلف به من عمل على وجه الإتقان والكمال دون إفراط أو تفريط — فإن حاد عن ذلك فهو مفرط فى حق نفسه وحق أمته وحق الناس أجمعين . وهو بعد مسئول بين يدى الله الذى لايخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء . يعلم ما نخفى وما نعلن «يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ» .

ثم هو مجازى بما يعمل . إن خيراً فخير . وإن شراً فشر . فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره . فالعالم — رجل الدين — رسالته فى الحياة تهذيب النفوس ، ومعالجة القلوب . وبيان سبل الخير والترغيب فى سلوكها . وطرق الشر والتنفير من ولوجها . ونشر العلم وتيسير فهمه . والرفق بالجاهل ، ولين الجانب للمتعلم

والجد فى نشر الفضائل و بث النصائح . مستعذبا الصعاب فى سبيل ذلك لا يثنيه عن قول الحق ترغيب أو ترهيب ، يفعل الخير قبل أن يوصى بفعله ، و ينأى عن الفساد قبل أن يحذر من ارتكابه ، فهو قدوة فى علمه وعمله وخلقه . لا يتملق إلا مولاه ولا يذل إلا لخالقه . يستمد عظمته من عظمة رسالته . وغناه من قناعته . وثقته برازقه ، شعاره الذى يعتز به قول الأول فى الزهد والقناعة والتعفف عما فى أيدى الناس .

أنا إن عشت لست أعدَم قوتاً وإذا مت لست أعدم قبراً
همتى همة الملوك ونفسى نفس حر ترى المذلة كفراً

والحاكم رسالته فى الحياة أن يعدل فى الرعية . ويقسم بالسوية . لا يفرق بين قريب و بعيد ، ولا بين عدو وصديق ، ويرعى شئون الناس بالقسطاس ويسهر على مصالحهم ما استطاع إلى ذلك سبيلا . و يضرب البغاة والظلمة والمفسدين فى الأرض ، ويشجع المحسنين العاملين لمصلحة الأمة ، ويؤلف بين المتخاصمين ، و يعمل على توحيد كلمة الأمة وجمع صفوفها ، حتى لا يكيد العدو لها وهى متفرقة فيذهب ريحها .

يجمع المال من الشعب . لينفقه فيما يسعد الشعب ، لا يحابى قرابته على حساب الأمة ، يتخذ بطانته من الأخيار الأطهار : الذين ينصحون لوجه الله والمصلحة العامة . إن فعل ذلك الحاكم فقد أدى رسالته ، وسعدت به أُمته ، وسدد الله خطاه ، وحفظه ورعاه ، وأظله تحت ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله ، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله

« الحاكم العادل ظِلُّ الله فى أرضه » . ومن رسالة الحاكم إشاعة الأمن فى البلاد ، ونشر التعليم ، والمحافظة على الصحة العامة ، ومحاربة الفاقة بإيجاد الأعمال للمتعطلين ، والإنفاق على العجزة ومن فى حكمهم من الأطفال والأرامل .

والمحكوم رسالته فى الحياة أن يكون للحاكم العادل عوناً على تأدية رسالته فيطيع أوامره ، وينفذ القوانين ، ويُعينَه على إحقاق الحق وإزهاق الباطل ، كما يعينه على اقتلاع جذور الفساد من المجتمع ، وتنمية سبل الخير . أما من وكل إليه تربية النشء فرسالته فى الحياة غرس الوطنية فى قلوب تلاميذه وتهذيبهم وتغذية أرواحهم بالعلوم النافعة ، وتبصيرهم بشئون دينهم ودنياهم ، وتنشئتهم على العزة والكرامة وحب الخير والمروءة والإقدام والتخلق بما يكسبهم الثناء والمجد ، وأن يكون قدوة عملية لهم فى العمل بأوامر الدين ، وأن يحبب إليهم القرآن ويرشدهم إلى عظمة نبيهم سيد الأنام ويفتح أمامهم باب الأمل ، ويحضهم على العمل ؛ ويمرنهم على الطاعة والنظام وحب الخير والنفع العام .

وكذلك كل عالم فى فن من الفنون عليه أن يبذل جهده لينفع بفنه أمته فيحاول أن يفكر ويخترع ما يعود على الأمة بالخير فى زراعتها وتجارتها وصناعتها ، كما يفكر فى تقوية مركز بلاده أمام الدول الأخرى لتكون مسموعة الكلمة ، مرفوعة اللواء . وكل من يستطيع نفع بلاده ولا يفعل فقد فرط فى القيام برسالته . وكل من يستطيع معونة الناس

الذين يحتاجون إلى المعونة ولا يفعل فقد فرط كذلك فى تأدية رسالته فالأطباء تتصل رسالتهم بالإنسانية الكاملة والرحمة بالضعفاء ، فهم مسئولون عن تخفيف آلام المرضى والقيام على علاجهم ، ولا يصح أن يدخل فى حسابهم غنى المريض وفقره ، فالطبيب إنسان جعل الله رسالته فى الحياة تخفيف الآلام ، ومداواة الأسقام ، فإذا رأى ذلك ثم وقف جامداً حتى يأخذ المال ولو ممن لا يملكه فإنه حينئذ يحجم عن أداء رسالته السامية لبنى جنسه ويقال عنه انه تاجر ينتهز الفرصة ويستغل الحاجة ، بل إنه يكون إنساناً نزعت من قلبه الرحمة ، وهى إنما تنزع من قلوب الأشقياء ، والغنىّ الذى يسمع بأذنه شكوى الجائع ، ويرى بعينيه عرى العارى ، أو يعلم من أمر جيرانه ما هم فيه من حاجة ومَتْرَبة ثم لا تتحرك يده إلى جيبه ليطعم الجائع ويكسو العارى ويقضى حاجة المحتاج ، فهو كذلك فى غفلة عن رسالته ، وكافر بنعمة خالقه الذى أفاض عليه من خيره وأمره بالإنفاق مما أعطاه وضمن له الخلف فى المال والذكر الحسن بين الناس والنعيم المقيم فى جنات النعيم .

وهكذا كل من الزارع والتاجر والصانع كل فى عمله ، رسالتهم فى الحياة أن يقوم كل واحد بعمله خير قيام ، فيهتم الزارع بالغراس ، ويلتمس الوسائل الحديثة للاستنبات ، ويبذل جهده فى حقله لينتج إنتاجا حسناً ، كما يهتم التاجر باستجلاب البضائع وتيسير حاجات الناس منها متوخياً فى ذلك المصلحة العامة لخلق الله دون أن يستغلهم أو يغشهم

أو يدلس عليهم ، أو يحتكر أقواتهم . وفى الحديث : « الجالب مرزوق والمحتكر ملعون » ، وكذلك الصانع رسالته إتقان صنعته محاولا أن يكون دائما فى تقدم مع حرصه على الصدق والأمانة والوفاء .

لو أدّى كل فرد رسالته على ما ينبغى ، وفكر أنه تحت عين الله ، ينظر إليه ويراه ، وأنه إن أحسن فى عمله أحسن الله إليه وضاعف له وأن كل عمل سواء كان دينياً أو دنيويا ، خاصاً أو عاماً ، متى أخلص المرء فيه النية وأتقنه ابتغاء وجه ربه ، فسيجد من توفيق الله وتيسيره له فى الدنيا وثوابه وكرامته فى دار الخلود مالا يقدر قدره إلا الله .

ولو أدى كل فرد رسالته فى الحياة وقام بأداء الناحية التى هيأه الله لها أداءً حسناً لتحققت المساواة للجميع ، وتلك هى الغاية التى يريدها الإسلام فيما أتى به من تشريع وأحكام ، وهى رسالة القرآن الذى أنزله الله على رسوله صلى الله عليه وسلم ، فاستجاب له المسلمون الأولون فعزُّوا بعد ذل ، وسعدوا بعد شقاء ، وأصبحوا المثل الأعلى للأمم الحية الناهضة ، لأن كل واحد منهم كان يشعر بالمسئولية فى أداء الرسالة التى كلف بها والواجب الذي عليه لله وللناس . ولما كان موضوع هذا الكتاب : النجاة ، والأسباب الموصلة إليها فإنى أسوق للقارئ الكريم أبوابا وأنواعاً من الخير لو تدبرها وعمل بمقتضاها نجاه الله من خزى الدنيا وعذاب الآخرة ، ومنحه السعادة والهناءة فى حياته ، وكتب له الفوز والفلاح يوم يقوم الناس لرب العالمين ، يوم يقول الفائز الناجى :

« هاؤُمُ اقْرَأُوا كِتَابِيَه ، إِنِّى ظَنَنْتُ أَنِّى مُلَاقٍ حِسَابِيَه ، فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَاضِيَه ، فِى جَنَّةٍ عَالِيَه ، قُطُوفُهَا دَانِيَه » :

ونفتتح « سفينة النجاة » بتلك القصة الرائعة التى قصها علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم قصة رجل عابد اتقى الله وعمل بأوامره ، فأنطق له صبياً فى المهد ليشهد ببراءته مما اتهم به ظلما وزورا .

قصة جريج العابد

روى البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : لم يتكلم فى المهد إلا ثلاثة عيسى بن مريم (وقصته معروفة لكل مسلم) وصاحب جريج . وكان جريج رجلا عابداً . فاتخذ صومعة (مكاناً يتعبد فيه بعيداً عن الناس) فكان فيها فأتته أمه وهو يصلى . فقالت يا جريج . فقال يا رب أمى وصلاتى (أى أأجيب أمى أو أستمر فى صلاتى ؟ وأخيراً فضل الاستمرار فى صلاته) ، فأقبل على صلاته فانصرفت (أمه) فلما كان من الغد أتته وهو يصلى فقالت : يا جريج . فقال يا رب أمى وصلاتى . فأقبل على صلاته — (فغضبت أمه لكونه لم يجبها ولم يرد عليها فدعت عليه) فقالت : اللهم لا تمته حتى ينظر إلى وجوه المومسات (الزوانى) فتذاكر بنو إسرائيل جريجا وعبادته — أى أثنوا عليه لتقواه وصلاحه وانقطاعه للعبادة — وكانت امرأة بغى (زانية) يتمثل بحسنها — تسمع حديث القوم —

فقالت إن شئتم لأفتنه . فتعرضت له فلم يلتفت إليها ، (شأن الذين يخافون ربهم) فأتت راعياً كان يأوى إلى صومعته — أى يستريح عندها — فأمكنته من نفسها فوقع عليها فحملت فلما ولدت قالت هو من جريج — فثار الناس على جريج — فأتوه فاستنزلوه وهدموا صومعته وجعلوا يضربونه فقال ما شأنكم قالوا زنيت بهذه البغى فولدت منك . قال أين الصبى فجاؤا به فقال دعونى حتى أصلى . فصلى فلما انصرف من صلاته — أتى الصبى فطعن فى بطنه وقال يا غلام من أبوك قال فلان الراعى « فهلل الناس وكبروا » فأقبلوا على جريج يقبلونه ويتمسحون به وقالوا نبنى لك صومعتك من ذهب قال : لا . أعيدوها من طين كما كانت ففعلوا . فانظر أيها الفطن اللبيب كيف جاءت النعمة فى ثوب محنة ، وكيف أجاب الله دعاء الأم على ولدها الصالح الذى فضل الاستمرار فى صلاته على كلامها — إن من يتأمل ذلك يعرف قيمة طاعة الوالدين وأن رضاءهما من رضاء الله تعالى وغضبهما من غضب الله تعالى ، وجريج لم يجب أمه وهو متلبس بعبادة الله تعالى فعاقبه الله بما هو مذكور فى الحديث المتقدم فكيف بمن يعق والديه ولا يطيع لهما أمراً . بل ماذا يكون عقاب من يذيقهما العذاب ألواناً ويمنع برّه عنهما ويفضل عليهما الزوجة والأولاد . إن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل عقوق الوالدين من أكبر الكبائر ونظمه فى سلك الشرك بالله . وفى حديث لمسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال

رسول الله صلى الله عليه وسلم (لا يجزى ولدٌ والداً إلا أن يجده مملوكا فيشتريه فيعتقه) وجاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستأذنه فى الجهاد . فقال : أحيٌّ والداك قال نعم . قال : ففيهما فجاهد) فتقرب إلى الله ببر والديك ، وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا ، ويفهم أيضاً من قصة جريج أن صلاحه وتقواه وإخلاصه فى طاعة الله كان كل ذلك سبباً فى نجاته من كيد تلك المرأة البغى . فأنطق له صبياً فى المهد يشهد بطهارته من الدنس وبذلك سما قدره وظهر فضله وعلا ذكره ، وهكذا شأن الله تعالى مع عباده المتقين يبتليهم ثم يتدارکهم برحمته فيفرج كربتهم ويتجلى عليهم بالمكرمات ويمنحهم القبول والرضوان والذكر الحسن فى الدنيا والسعادة الدائمة فى دار القرار .

فتقوى الله سبب النجاة من كيد الأعداء « وَإِنْ تَصْبِرُوا وتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيط » .

وتقوى الله سبب تفريج الكربات وسبب اليسر والبركة قال الله تعالى « وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجعَلْ لَهُ مَخْرَجاً ويَرزُقْهُ مِنْ حَيثُ لَا يَحتَسِبْ »

ويجمل بى وبك أن تستمع فى هذا الحديث العظيم قصة الصبى الثالث الذى تكلم فى المهد فيقول النبى صلى الله عليه وسلم (وبينما صبى يرضع من أمه فمر رجل راكب على دابة فارهة أى جميلة) وشارة حسنة ، فقالت أمه اللهم اجعل ابنى مثل هذا فترك الثدى وأقبل إليه

فنظر إليه . ثم قال : اللهم لا تجعلنى مثله ، ثم أقبل على ثديه فجعل يرضع فكأنى أنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يحكى ارتضاعه بأصبعه السبابة فى فيه فجعل يمصها ، ثم قال : ومروا بجارية وهم يضربونها ويقولون زنيت وسرقت ، وهى تقول حسبى الله ونعم الوكيل ، فقالت أمه : اللهم لا تجعل ابنى مثلها ، فترك الرضاع ونظر إليها ، فقال : اللهم اجعلنى مثلها فهناك تراجعا الحديث .

(أى تكلمت الأم مع صبيها) فقالت : مر رجل حسن الهيئة فقلت اللهم اجعل ابنى مثله ، فقلت اللهم لا تجعلنى مثله . ومروا بهذه الأمة وهم يضربونها ويقولون زنيت سرقت ، فقلت اللهم لا تجعل ابنى مثلها . فقلت اللهم اجعلنى مثلها . قال (الصبى) إن ذلك الرجل جبار . فقلت : اللهم لا تجعلنى مثله . وإن هذه (الجارية) يقولون زنيت ولم تزن ، وسرقت ولم تسرق . فقلت : اللهم اجعلنى مثلها) .

إن قصة هذا الصبى عظة بالغة للجبارين الظالمين ، وسلوى للمظلومين المستضعفين — فما يرضى أن يكون من الجبارين . من يخاف يوماً يجعل الولدان شيباً — أما المظلوم فالله نصيره يرعاه برعايته ، ويدافع عنه بقدرته القاهرة ، يجيب دعوته ويفتح لها أبواب السماء ويقول : وعزتى وجلالى لأنصرنك ولو بعد حين .

النجاة من الهموم والأحزان

تجد تحت هذا العنوان ما يسعد نفسك ، ويذهب همك ، ويشرح صدرك ، وسترى فيما أقصه عليك أن الله خلق لكل داء دواء ، فما من شيء إلا وله نهاية . فالهم له نهاية ، والحزن له آخر ، والضيق يعقبه الفرج ، والعسر يأتي بعده اليسر ، والمرض بعده الصحة ، والفقر بعده الغنى — فإذا منح الله العبد الصحة والأمن والقوت — فلا عليه مافاته من الدنيا — وفى هذا يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم (من أصبح آمناً فى سِرْبِهِ ، معافًى فى بدنه عنده قوت يومه ، فكأنما حِيزت له الدنيا بحذافيرها)

وقال بعض الصالحين : يقول الله تعالى فى بعض الكتب المنزلة : إن عبداً أغنيته عن ثلاثة : لقد أتممت عليه النعمة ، عن سلطان يأتيه ، وطبيب يداويه ، وعما فى يد أخيه — ولقد أصاب الشاعر الذى أشار إلى هذا المعنى فى قوله :

إذا ما القوت يأتيك كذا الصحة والأمن
وأصبحت أخا حزن فلا فارقك الحزن

ويقول الآخر فى تقلب الأحوال :

رأيت الدهر مختلفاً يدور فلا حزن يدوم ولا سرور

وقد بنت الملوك لها قصوراً فلم تبق الملوك ولا القصور

وإذا كانت نهاية المرء معروفة ، وأنفاسه معدودة ، وأيامه محدودة وعمره إلى انقضاء ، وحياته إلى فناء ، فلماذا ينغص أيامه ولياليه القصيرة بالهموم التى تحرق الدم ، وتقتل الأعصاب ، وتجعل أيامه القصيرة جحيما لا يطاق ، إن العاقل من يبحث عن سبب الهموم ، ويعمل جاهداً على الخلاص منها ، مستعيناً بالله متوكلا عليه ، مؤمناً بأن ما كان له لن يفوته ، وما لم يكن له لن يدركه مهما بذل وجد ، وصدق الأول فى قوله :

والمرء ساعٍ لأمر ليس يدركه والعيش شحٌّ وإشفاقٌ وتأميل

وقد علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نستعيذ بالله من ثمانية أشياء ورسم لنا طريق الشفاء من الهموم والأحزان ، ففى الحديث الذى رواه أبو داود عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم المسجد ، فإذا هو برجل من الأنصار يقال له أبو أمامة جالساً فيه ، فقال : يا أبا أمامة مالى أراك جالساً فى المسجد فى غير وقت صلاة ، قال : هموم لزمتنى وديونٌ يا رسول الله ، فقال : ألا أعلمك كلاماً إذا قلته أذهب الله عزّ وجل همّك ، وقضى عنك دينك ، فقال : بلى يا رسولَ الله ، قال : قلْ إذا أصبحتَ وإذا أمسيتَ : اللهم إنى أعوذُ بك من الهمّ والحُزن ، وأعوذُ بك من العجز والكسل ، وأعوذ بك من البخل والجبن ، وأعوذ بك من غلبة الدين

وقهر الرجال . قال : فقلت ذلك فأذهب الله همّى وقضى عنى دينى) .

وقد تعجب من قول المعصوم الذى لا ينطق عن الهوى — ألا أعلمك كلاماً إذا قلته أذهب الله همك ، وقضى عنك دينك — وتقول فى نفسك كيف نعالج الهموم ، ونقضى الديون بدعاء ندعو به ، وأنا أقول لك — قبل شرح الحديث — لا تتعجل قبل أن أذكر لك فعل الدعاء العجيب فى كشف الكربات ، وتفريج الأزمات ، وحل المشكلات ، إذا كان الداعى موقناً ، ولرسوله مصدقاً ، وفى دعائه مخلصاً ولربه طائعاً .

ففى الحديث كما فى مستدرك الحاكم عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم (أدعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة ، واعلموا أن الله لا يقبل دعاء من قلب غافل لاهٍ) .

فالدعاء مجاب ولكن يمنع من إجابته غفلة القلب عمن تدعوه وكذلك أكل الحرام يضعف قوته و يبطل تأثيره ففى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (أيها الناس ، إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً . و إن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال : « يا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ » وقال : « يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ » . ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعثَ أغبرَ يمد يده إلى

السماء : يارب ، يارب ، ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام ، وغذى بالحرام ، فأنّى يستجاب لذلك » ، فبيّنَ صلى الله عليه وسلم أن أكل الحرام مانع من إجابة الدعاء . وفى كتاب الزهد عن عبد الله ابن أحمد قال : (أصاب بنى إسرائيل بلاء فخرجوا مخرجاً — يدعون فيه — فأوحى الله عزّ وجل إلى نبيهم أن أخبرهم أنكم تخرجون إلى الصعيد (الخلاء المرتفع) بأبدان نجسة وترفعون إلىّ أكفًّا سفكتم بها الدماء وملأتم بها بيوتكم من الحرام ! والآن حين اشتد غضبى عليكم (أى الآن تدعوننى حين زاد غضبى عليكم بما فعلتم من المنكرات) ولن تزدادوا منى إلا بعداً .

فهذا الأثر يبين أيضا أن ارتكاب المعاصى وفعل الموبقات مانع من إجابة الدعاء ، وصدق الله تعالى فى قوله : « إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ » . « إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ » ،

فالدعاء من القلوب الطاهرة من أنفع الأدوية فى إزالة الهموم والأحزان ، وهو عدوّ البلاء يقاومه ويمنع نزوله ، أو يضعف قوته إذا نزل ، وهو سلاح المؤمن ، وعماد الدين ، ونور السموات والأرض ، كما يقول النبىّ الكريم ، وله مع البلاء ثلاث حالات : الأولى أن يكون أقوى من البلاء فيدفعه . الثانية أن يكون أضعف من البلاء فيتغلب عليه البلاء فيصاب به العبد ، ولكن الدعاء يخففه . الثالثة : أن يتقاوما ويمنع كل واحد منهما صاحبه .

وفى الحديث : « الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل ، وإن البلاء لينزل فيلقاه الدعاء فيعتلجان ويقاوم أحدهما الآخر إلى يوم القيامة » .

وفى حديث آخر : « لا يرد القدَر إلا الدعاء ، ولا يزيد فى العمر إلا البر ، وإن الرجل لَيُحْرَم الرّزق بالذنب يصيبه » .

وعلى المؤمن أن يسأل الله فى كل أحواله فى العسر واليسر والصحة والمرض ، فقد روى ابن ماجة من حديث أبى هريرة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من لم يسأل الله يغضب عليه » .

ويعجبنى قول الشاعر :

لاتسألَنّ بُنَىَّ آدم حاجة وسل الذى أبوابه لاتحجب
الله يغضب إن تركت سؤاله وبنى آدم حين يُسأل يغضب

وفى كتاب الزهد الإمام أحمد عن قتادة قال : قال مورق : ماوجدت للمؤمن مثلا إلا رجل فى البحر على خشبة ، فهو يدعو يارب ، يارب ، فلعل الله أن ينجيه » .

وإذا دعا العبد فليكثر ويلح ويتذلل لخالقه ، فإن النبى صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الله يحب الملحين فى الدعاء »

وإذا كان مع الدعاء حضور القلب وصادف وقتاً من أوقات الإجابة وهى الثلث الأخير من الليل ، وعند الأذان . وبين الأذان والإقامة . وعقب الصلوات المكتوبات . وعند صعود الإمام يوم الجمعة

على المنبر حتى تقضى الصلاة وآخر ساعته بعد عصر يوم الجمعة وكان القلب خاشعاً وأظهر العبد انكساراً وتضرعاً واستقبل القبلة . وكان على طهارة ورفع يديه إلى الله تعالى و بدأ بحمده والثناء عليه وصلى وسلم على نبيه وقدم التوبة والاستغفار ثم دخل على الله وألح فى الدعاء وتوسل إليه بأسمائه وصفاته وتوحيده وقدم بين يدى دعائه صدقته . فإن هذا الدعاء لا يكاد يرد أبداً خصوصاً إن وفقه الله للأدعية التى أخبر النبى صلى الله عليه وسلم أنها مظنة الإجابة أو متضمنة للإسم الأعظم .

و إلى القارىء الكريم طائفة من الأدعية المأثورة التى هى مظنة الإجابة أو بها اسم الله الأعظم .

فى السنن وصحيح ابن حبان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع رجلا يقول : اللهم إنى أسألك بأنى أشهد أنك أنت الله . لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد . فقال : لقد سأل الله بالإسم الذى إذا سأل به أعطى و إذا دعى به أجاب — وفى لفظ — لقد سألت الله باسمه الأعظم .

وفى جامع الترمذى وصحيح الحاكم أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « دعوة ذى النون إذ دعا وهو فى بطن الحوت (لَا إِلٰهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ) إنه لم يدع بها مسلم فى شىء قط إلا استجاب الله له » .

وفى صحيح الحاكم أيضاً من حديث سعد عن النبى صلى الله عليه وسلم ألا أخبركم بشىء إذا نزل برجل منكم أمر مهم فدعا به يفرج الله عنه ، دعاء ذى النون ، وفيه أيضاً يقول النبى صلى الله عليه وسلم (هل أدلكم على اسم الله الأعظم دعاء يونس . فقال رجل يا رسول الله هل كان ليونس خاصة . فقال ألا تسمع قوله تعالى : « فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِى الْمُؤْمِنِين » .

فأيما مسلم دعا بها فى مرضه أربعين مرة فمات فى مرضه ذلك أعطى أجر شهيد — وإن برىء برىء مغفوراً له) .

وفى السنن من حديث أنس بن مالك أنه كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم جالساً ورجل يصلى ، ثم دعا فقال : اللهم إنى أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت المنان ، بديع السموات والأرض ، ياذا الجلال والإكرام ، يا حى يا قيوم ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم لقد دعا الله باسمه العظيم الذى إذا دعى به أجاب . وإذا سئل به أعطى :

وفى جامع الترمزى أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا كربه أمر قال : يا حى يا قيوم برحمتك أستغيث — وفيه أيضاً أن النبى صلى الله عليه وسلم قول : « اسم الله الأعظم فى هاتين الآيتين : (وَإِلٰهُكُم إِلٰه وَاحِد لاَ إِلٰه إِلاَّ هُوَ الرَّحمن الرَّحِيم) وفاتحة آل عمران (الٓمٓ اللهُ لاَ إِلٰه إِلاَّ هُوَ الْحَىُّ الْقَيُّوم » .

وفى صحيح الحاكم : أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : اسم الله الأعظم فى ثلاث سور من القرآن : البقرة ، وآل عمران ، وطه ، قال القاسم فالتمستها فإذا هى آية (الحى القيوم) وفى مسند الإمام أحمد . قال على بن أبى طالب كرم الله وجهه : علمنى رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا نزل بى كرب أن أقول (لا إله إلا الله الحليم الكريم ، سبحان الله وتبارك الله رب العرش العظيم ، والحمد لله رب العالمين) .

وفيه أيضاً من حديث عبد الله بن مسعود . قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أصاب أحداً قط هم ولا حزن فقال : اللهم إنى عبدك ابن عبدك ابن أمتك ، ناصيتى بيدك ، ماض فى حكمك ، عدل فىَّ قضاؤك ، أسألك اللهم بكل اسم هو لك سميت به نفسك ، أو علمته أحداً من خلقك ، أو أنزلته فى كتابك ، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك ، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبى ، ونور صدرى ، وجلاء حزنى ، وذهاب همى . إلا أذهب الله همه وحزنه ، وأبدله مكانه فرجا ، فقيل يا رسول الله : ألا نتعلمها ؟ قال : بلى ينبغى لمن سمعها أن يتعلمها) .

ونختتم الكلام فى الدعاء بما ذكره ابن أبى الدنيا عن الحسن قال : كان رجل من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم من الأنصار : يكنى أبا مغلق وكان تاجراً يتجر بمال له ولغيره يضرب به فى الآفاق ، وكان ناسكا ورعاً ، فخرج مرة فلقيه لص مقنع بالسلاح ، قال له ضع

ما معك فإني قاتلك . قال : فما تريد إلا دمي ؟ فشأنك والمال . قال : أما المال فلي ، ولست أريد إلا دمك : قال أما إذا أبيت فذرني أصلي أربع ركعات ، قال : صل ما بدا لك فتوضأ ثم صلى أربع ركعات ، فكان من دعائه في آخر سجدة أن قال : يا ودود ياذا العرش المجيد ، يافعال لما تريد ، أسألك بعزك الذي لا يرام ، وبملكك الذي لا يضام ، وبنورك الذي ملأ أركان عرشك ، أن تكفيني شر هذا اللص ، يامغيث أغثني ، يا مغيث أغثني ، يا مغيث أغثني — ثلاث مرات — فإذا هو بفارس أقبل بيده حربة قد وضعها بين أذني فرسه ، فلما بصر به اللص أقبل نحوه فطعنه فقتله ، ثم أقبل إليه فقال قم . فقال : من أنت بأبي أنت وأمي . فقد أغاثني الله بك اليوم . فقال : أنا ملك من أهل السماء الرابعة دعوت فسمعت لأبواب السماء قعقعة . ثم دعوت بدعائك الثاني ، فسمعت لأهل السماء ضجة ، ثم دعوت بدعائك الثالث فقيل لي دعاء مكروب . فسألت الله أن يوليني قتله . قال الحسن : فمن توضأ وصلى أربع ركعات ودعا بهذا الدعاء استجيب له مكروباً كان أو غير مكروب .

وهنا سؤال يتردد على الألسنة وهو : أن المدعو به إن كان قد قدّر لم يكن بدّ من وقوعه ، دعا به العبد أو لم يدع ، وإن لم يكن قدر لم يقع سواء سأله العبد أو لم يسأله . ووقع هذا السؤال في خيال طائفة واعتقدوا صحته فتركوا الدعاء وقالوا لا فائدة فيه — ويقال للسائل : إن معنى هذا

تعطيل جميع الأسباب ، فإن كان الشبع والرى قد قدرا لك فلابد من وقوعهما أكلت أو لم تأكل ، وإن لم يقدَّرا لم يقع شبع ولا رِىٌّ أكلت أو لم تأكل . وإن كان قُدِّرَ لك الولد فلابد منه وطئت الزوجة أو لم تطأها . وهذا لايقول به إنسان ، فالحيوان فضلا عن الإنسان مفطور على مباشرة الأسباب التى بها قوامه وحياته . وتوضيح ذلك أن المقدور قُدِّرَ بأسباب ، ومن أسبابه الدعاء ، فلم يقدَّر مجرداً عن سببه ولكن قدر بسببه ، فمتى أتى العبد بالسبب وقع المقدَّر ، ومتى لم يأت بالسبب انتفى المقدور ، وهذا كما قدر الشبع والرى بالأكل والشرب ، وقدّر الولد بالوطء ، وقدّر حصول الزرع بالبذر ، وكذلك قدر دخول الجنة بالأعمال ودخول النار بالأعمال ، فالدعاء من أقوى الأسباب ، فإذا قدر المدعو به بالدعاء لم يصح أن يقال لافائدة فى الدعاء ، كما لايقال لافائدة فى الأكل والشرب وجميع الحركات والأعمال ، وليس شىء من الأسباب أنفع من الدعاء ، ولا أبلغ فى حصول المطلوب . انتهى ملخصاً من كلام ابن القيم فى كتابه الجواب الكافى .

ولنعد الآن إلى شرح :

قصة أبى أمامة

أبو أمامة صحابى من أنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، دخل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم المسجد فوجده جالساً فى غير وقت

صلاة ، فسأله عن سبب جلوسه فى غير وقت الصلاة ، لأن المساجد ليست أماكن للجلوس في غير أوقات العبادة : « فإذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ الله » ، فالمؤمنون الأولون كانوا يحضرون إلى المساجد فى أوقات الصلاة ثم يضربون فى الأرض لطلب العيش فى غير وقتها ، أو يأوون إلى مساكنهم للراحة بين أولادهم وأهليهم . فأجابه أبو أمامة بأنه إنما يجلس فى المسجد لأمر عظيم ، فالهموم أقلقته ، والديون أزعجته ، فرأى أن يترك الناس ويجلس فى المسجد ، لعل الله أن يفرج كربه ، ويزيل همه .

والنبى صلى الله عليه وسلم بالمؤمنين رَؤُوف رحيم ، يهمه مايشغل أصحابه ، فعرض على أبى أمامة أن يعلمه كلمات إذا قالها فى الصباح والمساء قضى الله ديونه ؛ وأزال همومه التى أقَضَّتْ مضجعه ، وحرمته البهجة والسرور . فقال فرحاً مسرورا مستعجلا استعمال هذا الدواء الذى سيصفه له رسول الله صلى الله عليه وسلم ، علمنى يارسول الله هذه الكلمات ، عسى أن يمنّ الله بالفرج ، فيعود للنفس انشراحها ، وللحياة بهجتها ، وتزول عنى الديون التى أثقلت كاهلى ونغصت حياتى وجعلتني أسيرا للدائنين ، إذ الدَّيْن همٌّ بالليل وذلٌّ بالنهار . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : قل فى وقت الصباح الذى تتحرك فيه الطيور لطلب رزقها بعد أن أزال نوره ظلام الليل ، وفى وقت المساء

الذى جعله الله سكناً لمخلوقاته ، يستريحون فيه من عناء ما قاسوه فى النهار . قل فى هذين الوقتين اللذين يتغير فيهما حال العالم من حركة إلى سكون ، ومن ظلام إلى نور ، قل فى الصباح والمساء : (اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحزن ، وأعوذ بك من العجز والكسل ، وأعوذ بك من البخل والجبن ، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال) . فتلقفها أبو أمامة من فم النبى العظيم وقالها كما أمره ، فأذهب الله عنه همومه ، وقضى عنه ديونه — فمن أراد أن يزيل قلق نفسه واضطرابها ، ومن أراد أن يبدل الله عسره يسراً ، وضيقه فرجاً ، فليدع الله تعالى فى صباحه ومسائه بهذه الدعوات المباركات التى أرشدنا إليها سيد البشر ، سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

وينبغى أن نفهم أن الدعاء بهذه الكلمات لا يفيد ولا يحقق المطلوب منه ، إلا إذا عرف الداعى معنى الكلمات المذكورة ، وفهم الأضرار الذى اشتملت عليها هذه الأشياء الثمانية ، واستعاذ بالله من شرها وسوء نتيجتها ، واتخذ الأسباب والوسائل التى تمكنه من التغلب عليها ، وإلى القارىء الكريم معناها واحدة واحدة ، مبينة مفصلة مع بيان الطريق الموصل إلى التخلص منها .

(الأول) الهم : أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نستعيذ بالله من شره وأن نعمل جاهدين على التخلص منه ، والهم وقاك الله شره

يجعل الشاب شيخاً ، والصحيح مريضاً ، ويحول السعادة إلى شقاء ، بل يجعل الحياة جحيما لا يطاق ، ينفرُ المهموم من والده وولده ، ومن خلانه وزوجه ، ينظر إلى الحياة بمنظار أسود من الليل الحالك ، ويختلط عليه الأمر فى يقظته ومنامه ، ففى النوم يرى المزعجات ، وفى اليقظة يتخيل المنغصات ، يقلل شهوة الطعام ، ويحرم المرء من النوم الهنىء . حياةُ من يصاب به شقاء فى شقاء ، فهو منقبض النفس ، متبلد الحس ، ضعيف التفكير ، مضطرب التدبير . فالهم قلق النفس وهو يحدث عادة للمرء فى الأمور المهمة المقبلة التى يحب حصولها أو يخشى شرها ، كمزارع مثلا شغل الهم قلبه ، وملك عليه مشاعره فى محصول زرعه ؛ وارتفاع ثمنه ، فهو دائم الحديث عن محصول القطن والثمن المنتظر للقنطار ، وقد شغله همه عن الاهتمام بالزراعة وسقيها والعناية بها ، واستنباط الوسائل الحديثة ، التى تنمى المزروعات وتزيد فى غلتها . وكان خيراً له بدل أن يشغل نفسه بالحديث عن مقدار ما ستنتجه الأرض وعن ثمنه ، أن يجد ويجتهد ، ويعمل ويبتكر لتكون زراعته أفضل زراعة ، ويترك ماعدا ذلك إلى الله الذى يكافىء العاملين ، ولا يضيع أجر المحسنين .

وكإنسان يخشى كيد أعدائه وافتراسهم له ، فهو دائم الانقباض والتفكير ، يحدث كل من يلقاه عن أعدائه وما أعدوا له من وسائل الهلاك ، فيقضى وقته فى الهموم والخواطر التى تقلقه ، والعاقبة التى

ينتظرها . وكان الأجدر به أن يتخذ الأسباب التى تقيه شرهم ، وتبعد عنه أذاهم ، فإن كان لهم عليه حق أداه ، وإن كان يستطيع أن يزيل ما بينه وبينهم من خصومة فعل ولو بالتنازل عن بعض حقه ، وبالعفو عن المسىء ، والصفح عن المخطىء .

وكإنسان يريد الغنى والجاه ، ولم يتخذ الطرق الموصلة إلى ذلك ، وإنما يصرف وقته فى هموم وخواطر ، وهواجس وأفكار لا تجلب إلا الشقاء . وهكذا كل من له آمال وشغل بالكلام فيها ، والتحدث عنها دون أن يعمل ويجد فى نيلها ، والحصول عليها ، أو يخشى حصول مكروه يصيبه ، دون أن يعد العدة للوقاية منه ، أو يفكر فى الوسيلة المنجية لما يتوقع من الشر .

فالهم والقلق والاضطراب ، داع إلى التقصير فى الواجبات ، وترك التدبير النافع للحصول على الخير المأمول ، أو تجنب الشر المتوقع ، والمرء مطالب فى الحياة أن يسلك السبل الموصلة للسعادة ، ويدرأ عن نفسه أسباب الهوان والشقاء ، وعليه بعد ذلك أن يدع أمره لخالقه ، منشرح النفس ، مسرور الخاطر ، موقناً أن ما أخطأه لم يكن ليصيبه ، وما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أحسن قول الشاعر :

دع المقادير تجرى فى أعنتها ولا تبيتن إلا خالى البال
ما بين طرفة عين وانتباهتها يغير الله من حال إلى حال

ولعلك بعد ما سمعت ما يجره الهم من الشرور والآثام ، تدرك الحكمة فى أن رسولنا الكريم تعوذ منه ، وحثنا على الاستعاذة بالله من شره وسوء أثره .

(الثانى) مما أمرنا رسول الله أن نستعيذ بالله منه — الحزن — وهو يكون فى الأمور الماضية كمرغوب فيه لم يتحقق ، أو بلاء حلَّ بالمرء ونزل به ، والحزن يذبل زهرة الحياة ، ويسدل على صاحبه ثوب الكآبة ، ويرسم على وجهه أمارات البؤس ، فهو دليل الشقاء ، ورسول الفناء ، يذيب الشباب ، ويحطم الأعصاب ، ويفسد الجسم ، ويضر العقل ، ويضعف النفس ، ويمرض القلب ، المبتلى به يرضى الشيطان ، ويغضب الرحمن ، فهو خسران فى الدنيا والآخرة .

ومن أجل ضرره حذرنا الله منه ونهانا عنه ، قال تعالى : « وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا » وقال سبحانه حكاية عن رسوله صلى الله عليه وسلم « لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا » .

فالحزن سخط على القضاء ، وضياع للوقت ، وتعلق بما لا سبيل إلى حصوله . وبدل أن يَجِدَّ المرء فى عمل ينسيه مصيبته أو يخفف وقعها ، يغرق فى أحزانه التى لا تردّ ما ضاع ولا تدفع ما وقع ، بل تذيب حياته وتذوى شبابه ، فمن نزلت به مصيبة ، أو حلت بساحته قارعة ، من موت حبيب أو ضياع مال ، أو إصابته بمرض أو عاهة ، أو اتهم وحكم عليه

ظلما ، فليعلم أن ذلك مقدر عليه وهو فى بطن أمه ، وأن ما حدث له كان لا بد من وقوعه به تنفيذاً لما كتب عليه فى الأزل .

قال الله تعالى : « مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا (نخلقها) إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِير لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ » .

واعلم أن ما يصيبك فى هذه الدنيا من الرزايا والبلايا إما أن يكون بسبب ذنب ارتكبته و إثم اجترحته ، فذلك تطهير لنفسك وتكفير لخطاياك فاشكر ربك أن عجل لك العقوبة فى الدنيا لينجيك من خزى يوم القيامة ، و إما أن يكون ما حدث لك ابتلاء من الله وامتحان لإيمانك ، ليظهر قوة احتمالك للشدائد ومقاومتك للنوازل ومقدار صبرك فى المصائب فإن أظهرت الثبات ، وتجملت بالصبر ، وتحليت بالشجاعة بحيث يظن من يراك أن النوائب لم تنل منك ، ولم تفرق عليك أمرك ، إن فعلت ذلك أمدّك الله بمدده ، وزادك ثباتاً و يقينا وكتبك عنده من الصابرين الذين يوفون أجرهم بغير حساب « أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَة ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ » .

وفى الآية الآتية يبين الله تعالى أن البلايا تنزل عقاباً على فعل المعاصى قال الله تعالى : « وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ

وَيَعْفو عَنْ كَثِير » وفى آية أخرى يبين أنها تنزل للابتلاء والامتحان قال تعالى : « وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَابِرِينَ » . ويجمل بك أيها المؤمن الذى نزل بك ما تكره أن تستمع إلى كلمة فى

الصبر

هو حلية المؤمنين ، وشعار الصالحين ، وزينة المتقين ، يرفع الله به الدرجات ، ويعلى به المقامات ، سمة الأنبياء ، وعنوان النصر ودليل الفوز « بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ » .

الصبر — يجعل العبد حرا ، والذليل عزيزا والفقير غنيا رتب الله على الصبر عز الدنيا وسعادة الآخرة قال سبحانه : « وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا » . وقال تعالى : « وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا » . وقال سبحانه : « وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » .

وأى منزلة أعلى من منزلة من يكون الله معه يرعاه برعايته ويحفظه بعنايته ويسدد خطاه ويبلغه مناه « إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَابِرِينَ » . والإيمان نصفان : نصف صبر ، ونصف شكر وفى الأثر عن ابن عباس

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما دخل على الأنصار قال : أمؤمنون فسكتوا ، فقال عمر : نعم يا رسول الله ، قال : وما علامة إيمانكم ، قالوا : نشكر على الرخاء . ونصبر على البلاء ونرضى بالقضاء . فقال صلى الله عليه وسلم : مؤمنون ورب الكعبة .

وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : تخلق بأخلاقى وإن من أخلاقى أنى أنا الصبور » وفى رسالة سيدنا عمر بن الخطاب إلى أبى موسى الأشعرى قال له : عليك بالصبر ، واعلم أن الصبر صبران : أحدهما أفضل من الآخر ، الصبر فى المصيبات حسن . وأفضل منه الصبر عما حرم الله تعالى وقال الإمام على كرم الله وجهه : الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ولا جسد لمن لا رأس له ولا إيمان لمن لا صبر له .

ويعجبنى قول الأول :

أيها الإنسان صبرا ... إن بعد العسر يسرا
كم رأينا اليوم حرا ... لم يكن بالأمس حرا
ملك الصبر فأضحى ... مالكا خيراً وشرا
اشرب الصبر وإن كا ... ن من الصبر أمرا

ولن يبلغ إنسان مناه إلا إذا اتخذ له من الصبر زاداً . ومن العزيمة عماداً فالعالم إذا لم يصبر على معاناة العلوم والسهر الطويل لحل رموزها واستخراج الكنوز منها ، ضعف شأنه وتقدم عليه أقرانه .

والصانع والتاجر والزارع وكل ذى حرفة إن لم يجعل الصبر عدته فى حياته ، لم يصل إلى مرغوبه ، ولم يحصل على مطلوبه .

والمبتلى الذى نزلت بساحته المصائب ، إن لم يُذب مصائبه فى صبره تناوشته الهواجس والأفكار ، وحل به الدمار .

والصبر أقسام — الصبر على طاعة الله — الصبر عن معصية الله — الصبر على ما فات — الصبر على ما يحل بالمرء من مصائب وبلايا الصبر على مشاق الأعمال — ومجالدة الأيام — الصبر عند لقاء الأعداء — فالصبر على طاعة الله ، باعثه الخوف من الله والصبر عن معصية الله ، باعثه الحياء ممن يراه ، ويعلم نواياه والصبر على مافات من رغبة لم تتحقق أو ضياع مال أو خسران قضية باعثه السلو ، فإن الحزن لا يرد غائبا ، ولا يحقق أملا وقد صدق الشاعر فى قوله :

لا تطل الحزن على فائت فقلما يجدى عليك الحزن
سيان محزون على فائت ومضمر حزناً لما لم يكن

والصبر على المصائب والرزايا من فقد حبيب أو موت قريب ، فيه راحة للنفس ، وإعظام للثواب والأجر ، ورضاء بقضاء الله وقدره فإن صبر ، جرى عليه القضاء وهو مأجور ، وإن لم يصبر وجزع جرى عليه القلم وهو مأزور .

وفي الحديث القدسى يقول الله تبارك وتعالى : « من لم يرض بقضائى ويصبر على بلائى فليختر ربًّا سواى » ولا يفهم من هذا أننى

أقاوم الفطرة وأحاول منع ما لا يمنع فالحزن على الميِّت مثلا ، لا يمكن دفعه وبالأخص عند الصدمة الأولى وإلى الذى يظن هذا أسوق له من كلام النبي الكريم ما يشرح صدره ، فالممنوع الاسترسال فى الحزن والإسراف فيه كشق الجيوب ، ولطم الخدود ، وما إلى ذلك مما يفعله الجاهلون أما ما عدا ذلك من البكاء السالم من النياحة مثل دمع العين فقد فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ففى الحديث : أنه صلى الله عليه وسلم ، عاد سعد بن عبادة ومعه جماعة ، فبكى ، فلما رأوه بكوا ، فقال : «ألا تسمعون ؟ إن الله لا يعذب بدمع العين ولا بحزن القلب ، ولكن يعذب بهذا أو يرحم ، وأشار إلى لسانه » رواه البخارى ومسلم وفى الحديث أيضاً « أنه رفع إليه صلى الله عليه وسلم ابن لبنته وهو فى الموت ففاضت عيناه . فقال له سعد ما هذا يا رسول الله . قال هذه رحمة جعلها الله تعالى فى قلوب عباده ، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء » متفق عليه وفى البخارى أن النبى صلى الله عليه وسلم دخل على ابنه ابراهيم وهو يجود بنفسه . فجعلت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم تذرفان ، فقال له عبد الرحمن بن عوف . وأنت يا رسول الله ، فقال يا ابن عوف إنها رحمة ، ثم أتبعها بأخرى فقال : إن العين تدمع ، والقلب يحزن ، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا ، وإنا لفراقك يا ابراهيم لمحزونون » وثبت أنه جلس على قبر لبنته وقد دمعت عيناه ، فيؤخذ من هذا أن العين تدمع والقلب يحزن ، ولكن ينبغى عدم الاسترسال فى ذلك ، وليذكر كل

مصاب أن مصيبته أخف من غيره ، فالمرض درجات ، وفقد الأحبة درجات فما من بلاء إلا وفوقه أعظم وأطم ، فليذكر المريض حال المرضى والزمنى من المجذومين والمفلوجين وأصحاب العاهات والعلل وليشكر الله ، وإن فى الصبر على المصائب من ثواب الله وحسن العقبى ما يرغب العبد فيه أيما ترغيب ففى الحديث من استرجع عند المصيبة جبر الله مصيبته ، وأحسن عقباه وجعل له خلفاً صالحاً يرضاه — وروى البخارى ومسلم أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ما من مسلم يموت له ثلاثة لم يبلغوا الحنث إلا أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهم » والآثار والأحاديث فى ذلك كثيرة .

والصبر على مشاق الأعمال ومغالبة العقبات بطولة ورجولة فبالصبر على العمل يبلغ الحياة الشريفة ، ويحيا الحياة السعيدة ، والصبر فى مواطن القتال شجاعة تخلد الذكر وتعلى القدر ، والصبر الجميل هو الذى لا شكوى معه « إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّى وَحُزْنِى إِلَى الله » قال الأول :

إذا بليت فثق بالله وارض به ... إن الذى يكشف البلوى هو الله
إذا قضى الله فاستسلم لقدرته ... مَا لِامرىء حيلة فيما قضى الله
اليأسُ يقطع أحياناً بصاحبه ... لا تيأسَنَّ فإن الصانع الله

يروى أن أبا أيوب الكاتب حُبِس فى السجن خمس عشرة سنة حتى كاد اليأس يتسرب إلى نفسه ، فكتب إلى بعض أصدقائه يشكو طول حبسه ، فرد عليه بجواب وفيه هذه الأبيات :

صبراً أبا أيوب صبر مبرح فإذا عجزت عن الخطوب فمن لها
إن الذي عقد الذى انعقدت له عقد المكاره فيك يملك حلها
صبراً فإن الصبر يعقب راحة ولعلها أن تنجلي ولعلها

فأجابه أبو أيوب بقوله :

صبرتني ووعظتني وأنا لها وستنجلى بل لا أقول لعلها
ويحلها من كان صاحب عقدها كرماً به إذ كان يملك حلها

فلم يلبث بعد ذلك فى السجن إلا أياماً ، ثم أطلق سراحه معززاً مكرما :

إذا اشتملت على اليأس القلوب وضاق لما به الصدر الرحيب
وأوطنت المكاره واطمأنت وأرست فى مكانتها الخطوب
ولم ير لانكشاف الضر وجهاً ولا أغنى بحيلته الأريب
أتاك على قنوط منك غوث يمنُّ به اللطيف المستجيب
وكل الحادثات إذا تناهت فموصول بها الفرج القريب

ونكتفى بما ذكرنا فى الصبر لنقدم الأمر الثالث الذى تعوذ منه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمرنا بالتعوذ منه وهو :

العجز

بالعمل حياة الإنسان ، و به سعادته فى الدنيا والآخرة ، والعجز عدم القدرة على العمل ، سواء كان دينياً أو دنيويا ، فهو بلاء عظيم ،

وشرٌّ مستطير ، من ابتلى به حُرِمَ سعادة الدنيا والدين ، لذلك أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتعوّذ منه ، وأن نجانب أسبابه ، فالعامل الذى يرهق نفسه بالعمل يعرض صحته للتلف ، وشارب الحشيش ، وآكل الأفيون ، ومتعاطى الخمر معرض حياته للهلاك . ومُدْمِن السهر تذبل حياته ، ويضمحل جسمه ، ويضعف تفكيره ، فهوسائر بخطوات واسعة إلى العجز الذى أُمِرَ بالتعوّذ منه ومن شره ، والمريض الذى يبخل على نفسه بأجر التطبيب وثمن الدواء ، سائر إلى العجز ، والذي يُحْرِم نفسه من الرياضة البريئة والنزهة والراحة ولا يعطيها قسطها من النوم ، ولا حظها من الطعام والشراب ، هو سائر إلى العجز ، فلا نتعوّذ من العجز ونحن نأخذ بأسبابه ، ونسعى بأعمالنا إليه ، فمن يفعل ذلك فبعيد إجابته إلى مادعا . فحاذر إن كنت مؤمناً أن تفعل شيئا يجرك إلى العجز والعاجز حظه من الدنيا الهوان ، ومن الآخرة الخسران ، وهناك عجز لا يَدَ لَكَ فيه ، بل هو من صنع القضاء والقدر ، فسل الله اللطف فيه .

[الأمر الرابع] : مما تعوّذ منه النبىّ الكريم وأمرنا بالتعوّذ منه هو :

الكسل

الكسل التقاعد عن الشئ مع قدرته عليه ، وهو شر صفة يتصف بها الإنسان ، إن وجدت فى شخص جرّت عليه الخمول والضعة ،

وحرمته من بلوغ الآمال التى لا ينالها إلا المجد النشيط . الكسل مضعف للصحة ، لأن الجِدّ والنشاط يحرك الدم فى العروق فينشط الجسم وتَقْوَى البنية ، وينمو العقل . الكسول لا يقوم بالواجب كما ينبغى إيثاراً للراحة على العمل ، والكسالى أمثلتهم كثيرة ، فكسول فى أمر معاشه يفضل القعود على العمل ، والسعى فى إسعاد نفسه وأهله ، يرضى المهانة والعيش النكد ، فتراه يدور وراء من يعرفه ، لينال من ماله أو طعامه . وكان فى إمكانه لو جَدَّ فى الحياة أن يكون عظيما .

وتراه فى بعض الأحيان يفضل الجوع والعرى على العمل بما يجمل به نفسه ، فهو فى المقهى ، أو على الطوار نهاره ومعظم ليله ، وأمامه أبواب السعادة مفتحة ، اقتحمها أولو العزيمة القوية ، والوثبات الفتية ، فأصبحوا سادة وهو فى الأذلين .

وتمرّ بالنهار على بعض النوادى والمقاهى فترى العجب العجاب ، ترى كسالى الأغنياء ، يقضون يومهم فى خمول ، جلوساً مع أمثالهم من الوارثين ، يقتلون الوقت فى غير مفيد ، فهم أموات الأحياء ، خير منهم جامع أعقاب السجاير التى يلقونها ، لأنه يجد ليحيا ويعيش ، وهم فى فتور يودى بهم إلى القبور ، وقل مثل ذلك فى كسل العلماء والصناع وأصحاب الضياع .

وهناك كسول فى أمور دينه ، إن أدى واجباً أداه بفتور ، وفى

أمثاله يقول الله تعالى : « وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا » .

فتراه بدل أن يؤدى الصلاة مثلا فى أول وقتها ، يتباطؤا حتى يضيع الوقت ، و إذا دُعى للإصلاح بين متخاصمين سوَّفَ حتى تضيع الفرصة وهكذا ، فالكسل داء و بيل ، ومرض قاتل ، ومجانبته تكون بالعزيمة القوية ، ومخالطة العاملين المجدين ، والأخذ بأسباب النجاح والعمل الدائب لبلوغ المعالى . وصدق المرحوم شوقى بك فى قوله :

وما نيل المطالب بالتمنى ولكن تؤخذ الدنيا غِلَابا

وقال غيره :

و إذا كانت النفوس كبارا تعبت في مرادها الأجسام

ولما كان الكسل على ما وصفت لك ، وأنه شر ما يوصف به الإنسان تعوّذ منه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمرنا بالتعوذ منه ، والتحصن من شره . و إليك الأمر الخامس الذى أمرنا بالتعوّذ من شره وهو :

الجبن

الجبن خور فى العزيمة ، وضعف فى الرجولة ، وهو شح بالنفس ، فالذى يرى أمته تهان ولا يقدم نفسه فداء لها ، جبان ، جبان ، والذى يرى حرمات الدين تمتهن ولا يضحي بنفسه فى سبيل الدفاع عن دينه

والذود عن حياضه ، يميت نفسه ويشترى نحسه ، فهو ميت وإن كان فى عداد الأحياء ، فقد أمات نفسه العالية ، وروحه الطيبة ، فالمرء بالروح لا بالجسم إنسان .

الجبن عار يرتديه صاحبه فيكسبه المهانة فى الدنيا والعذاب فى الآخرة ، ومن أنفس ما قرأت كلمة بقلم المغفور له الإمام محمد عبده فى الجبن ولنفاستها وعلو شأنها وحسن توجيهها لأبناء الإسلام أنقلها بنصها قال رحمه الله تعالى :

شهد العيان ، ودلت الآثار على ما صدر من بعض أفراد الإنسان من أعمال تحير الألباب ، وتدهش الأفكار ، ينظر إليها ضعفاء العقول فيعدونها معجزات وإن لم تكن فى أزمنة النبوات ، ويحسبونها خوارق عادات ، وإن لم تكن من تحدى الرسالات ، وقد ينسبها الغفل إلى حركات الأفلاك ، وأرواح الكواكب ، وموافقة الطوالع ، ومن القاصرين من يظنها من أحكام الصدف وقذفات الاتفاق ، عجزاً عن درك الأسباب ، وفهم الصواب . وأما من آتاه الله الحكمة ، ومنحه الهداية ، فيعلم أن الحكيم الخبير جل شأنه ، وعظمت قدرته ، أناط كل حادث بسبب ، وكل مكسوب بعمل ، وأنه قد اختص الإنسان من بين الكائنات بموهبة عقلية ، ومقدرة روحانية ، يكون بهما مظهراً لعجائب الأمور ، وبهذه المقدرة وتلك الموهبة مناط التكاليف الشرعية . وبهما استحقاق المدح أو الذم عند العقلاء ، والثواب أو العقاب عند

واسع الكرم سريع الحساب ، إذا رجع البصير إلى القياس الصحيح رأى من تشابه القوى الإنسانية ، وتماثل الفطرة البشرية ما يدل على تقارب العقول ، بل على استواء المدارك ، وأرشده الفكر السليم إلى أن فضل الله قد أعد كل إنسان للكمال ، ومنحه ما يكون به مصدراً لفضائل الأعمال ، على تفاوت لا يظهر به الاختلاف بينهما إلا للنظر الدقيق ، هنا وقفة الحيرة : استعداد فطرى للكمال فى خلقة الإنسان ، ميل كلى فى كل فرد ، لأن ينفرد بالفخار ، ويمتاز بجلائل الآثار ، وفضل عام من الجواد المطلق سبحانه وتعالى لا يخيب طالباً ، ولا يرد سائلا ، إذا صدق القاصد فى قصده ، وأخلص السالك فى جده ، فما العلة فى إخلاد الجمهور الأعظم من بنى الإنسان إلى دنيا المنازل ، وقصورهم عن الوصول إلى ما أعدته لهم العناية ، واستفزهم إليه الميل الغريزى ، خصوصاً إن كانت النفوس مؤمنة بعدل الله ، مصدقة بوعده ووعيده ، ترجو ثواباً على الباقيات الصالحات ، وتخشى عقاباً على ارتكاب الخطيئات « فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهْ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهْ » ماذا يقعد النفوس عن العمل ، ماذا ينحدر بها فى مزالق الزلل ، إذا ردت المسببات إلى أسبابها . وطلبت الحقائق من حدودها ورسومها ، وجدنا لهذا علة هى أم العلل ، ومنشأ يقرن به كل خلل .

الجبن :

الجبن هو الذى أوهى دعائم الممالك فهدم بناءها ، هو الذى قطع

روابط الأمم فحل نظامها ، هو الذى أوهن عزائم الملوك فانقلبت عروشهم وأضعف قلوب العالمين ، فسقطت صروحهم ، هو الذى يغلق أبواب الخير فى وجوه الطالبين ، ويطمس معالم الهداية فى أنظار السائرين ، يسهل على النفوس احتمال الذلة ، ويخفف عليها مضض المسكنة ، ويهون عليها حمل نير العبودية الثقيل ، يوطن النفس على تلقى الإهانة بالصبر ، والتذلل بالجلد ، ويوطىء الظهور الجاثية لأحمال من المصاعب أثقل مما كان يتوهم عروضه عند التحلى بالشجاعة والإقدام : الجبن يلبس النفس عاراً دون القرب منه موت أحمر عند كل روح زكية ، وهمة علية ، يرى الجبان وعر المذلات سهلا ، وشظف العيش فى المسكنات رفهاً ونعيما :

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت إيلام

لا بل يتجرع مرارات الموت فى كل لحظة ، ولكنه راض بكل حال ، وإن لم يبق له إلا عين تبصر الأعداء ولا ترى الأحياء ، ونفس لا يصعد إلا بالصعداء ، وإحساس لا يلم به إلا الألم اللأواء ، هذه حياته ، أضاع كل شىء بالقناعة بلا شىء ، وهو يظن أنه أدرك البغية ، وحصل المنية . ما هو الجبن ؟ الخذال فى النفس عند مقاومة كل عارض لايلائم حالها ، وهو مرض من الأمراض الروحية ، يذهب بالقوة الحافظة للوجود التى جعلها الله ركناً من أركان الحياة الطبيعية ، وله أسباب كثيرة لو لوحظ جوهر كل منها لرأينا جميعها يرجع إلى الخوف من الموت . الموت مآل كل حى ، ومصير كل ذى روح . ليس للموت وقت يعرف

ولا ساعة تعلم ، ولـكنه فيما بين النشأة وأرذل العمر ينتظر فى كل لحظة ، ولا يعلمه إلا مقدر الآجال جل شأنه « وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَاذَا تَـكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ » يشتد الخوف من الموت إلى حد يورث النفس هذا المرض القاتل بسبب الغفلة من المصير المحتوم ، والذهول عما أعده الله للإنسان من خير الدنيا وسعادة الآخرة ، إذا صرف قواه الموهوبة فيما خلقت لأجله ، نعم . يغفل الإنسان عن نفسه فيظن ماجعله واقياً للحياة — وهو الشجاعة والإقدام — سبباً فى الفناء . يحسب الجاهل أن فى كل خطوة حتفاً ، ويتوهم أن فى كل خطوة خطراً مع أن نظرة واحدة لما بين يديه من الآثار الإنسانية ، وما ناله طلاب المعالى من الفوز بآمالهم ، وما ذللوا من المصاعب فى سيرهم ، تكشف له أن تلك المخاوف إنما هى أوهام وأصوات غيلان ، ووساوس شياطين ، غشيته فأدهشته ، وعن سبيل الله صدته ، ومن كل خير حرمته . الجبن : فخ تنصبه صروف الدهر وغوائل الأيام لتغتال به نفوس الإنسان ، وتلتهم به الأمم والشعوب ، هو حبالة الشيطان ، يصيد بها عباد الله ويصدهم عن سبيله ، هو علة لـكل رذيلة ، ومنشأ لـكل خصلة ذميمة ، لا شقاء إلا وهو مبدؤه ، ولا فساد إلا وهو جرثومته ، ولا كفر إلا وهو باعثه وموجبه ، ممزق الجماعات ، ومقطع روابط الصلات ، هازم الجيوش ومنكس الأعلام ، وهبط السلاطين من سماء الجلالة إلى أرض المهانة ، ماذا يحمل الخائنين على الخيانة فى الحروب الوطنية ؟ أليس هو الجبن ؟

ماذا يبسط أيدى الأدنياء لدنيئة الارتشاء أليس هو الجبن ربما تتوهم من بعد المثال فتأمل ، فإن الخوف من الفقر ، يرجع بالحقيقة إلى الخوف من الموت ، وهو علة الجبن . سهل عليك أن تعتبر هذا فى الكذب والنفاق وسائر أنواع الأمراض المفسدة عيشة الإنسان . الجبن عار وشنار على كل ذى فطرة إنسانية خصوصاً الذين يؤمنون بالله ورسله واليوم الآخر ، ويؤملون أن ينالوا جزاء لأعمالهم أجراً حسناً ومقاماً كريماً .

ينبغى أن يكون أبناء الملة الإسلامية بمقتضى أصول دينهم أبعد الناس عن هذه الصفة الرديئة — الجبن — فإنها أشد الموانع عن أداء ما يرضى الله ، وإنهم لا يبتغون إلا رضاه ، يعلم قراء القرآن أن الله قد جعل حب الموت علامة الإيمان ، وامتحن الله به قلوب المعاندين ، ويقول فى ذم من ليسوا بمؤمنين : « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ، فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ، وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ » .

الإقدام فى سبيل الحق ، وبذل الأموال والأرواح فى إعلاء كلمته أول سمة يتسم بها المؤمنون . لم يكتف الكتاب الإلهى بأن تقام الصلاة وتؤتى الزكاة ، وتكف الأيدى . وعد ذلك مما يشترك فيه المؤمنون والكافرون والمنافقون ، بل جعل الدليل المفرد هو بذل الروح فى إعلاء

كلمة الحق والعدل الإلهى ، بل عدها الركن الوحيد الذى لايعتد بغيره عند فقده .

لايظن ظان أنه يمكن الجمع بين الدين الإسلامى و بين الجبن فى قلب واحد . كيف يمكن هذا وكل جزء من هذا الدين يمثل الشجاعة و يصور الإقدام ، وإن عماده الإخلاص لله ، والتخلى عن جميع ما سواه ، لاستحصال رضاه .

المؤمن من يؤمن أن الآجال بيد الله يصرفها كيف يشاء ، ولايفيده التباطؤ عن أداء الفروض زيادة فى الأجل ، ولا ينقصه الإقدام دقيقة منه . والمؤمن لاينتظر بنفسه إلا إحدى الحسنيين : إما أن يعيش سيداً عزيزاً ، و إما أن يموت مقرَّبا سعيدا ، وتصعد روحه إلى أعلى عليين ، و يلتحق بالكرو بيين والملائكة المقربين .

من يتوهم أنه يجمع بين الجبن والإيمان بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم فقد غشَّ نفسه ، وغرر بعقله ، ولعب به هوسه ، وهو ليس من الإيمان فى شىء . كل آية من القرآن تشهد على الجبان بكذبه فى دعوى الإيمان . لهذا نؤمل من ورثة الأنبياء أن يصدعوا بالحق ، و يذكروا بآيات الله ، وما أودع الله فيها من الأمر بالإقدام لإعلاء كلمته والنهى عن التباطؤ والتقاعد فى أداء ما أوجب الله من ذلك . وفى الظن أن العلماء لو قاموا بهذه الفريضة والأمر بذلك المعروف والنهى عن هذا المنكر — زمناً قليلا ووعظوا الكافة بتبيين معانى القرآن الشريف ،

وإحيائها فى أنفس المؤمنين ، لرأينا لذلك أثراً فى هذه الملة يبقى ذكره أبد الدهر ، وشهدنا لها يوماً تسترجع فيه مجدها فى هذه الدنيا وهو مجد الله الأكبر ، فالمؤمنون بما ورثوا من أسلافهم ، وبما تمكن من أفئدتهم من آثار العقائد لايحتاجون إلا لقليل من التنبيه ، ليسير من التذكير، فينهضون نهضة الأسود ، فيستردوا مفقودا ، ويحفظوا موجوداً وينالوا عند الله مقاماً محمودا » .

وأظن ليس أبلغ من هذا الكلام كلام ، ولا أحكم من هذا التصوير تصوير ، فقد كشف الإمام فى هذه الكلمة القيّمة أن سبب كل النكبات التى حلّت بالمسلمين هو الجبن . ومن هذا تعرف سر تعوّذ النبى صلى الله عليه وسلم منه وأمرنا بالتعوذ من شره .

وإليك الأمر السادس الذى أمرنا بالتعوذ منه وهو :

البخل

هو الشح بالمال والبخل به عن إنفاقه فى إسعاد نفسه وأولاده وأمته ، فالمرء الذى منحه الله نعمة المال ووسع عليه فى الرزق ولم يمتّع نفسه وأولاده بالطيبات مما أحلّ الله ، ولم يصل به أرحامه ، ويواسى به المنكوبين ، ويتصدق ببعضه على المحتاجين ، وينقذ به أمته ، فينشئ المساجد والمستشفيات والملاجئ والمدارس ، ويبذله بسخاء نفس فى تجهيز الجيوش لحماية الوطن والدفاع عن البلاد .

إن الإنسان الذى أفاض الله عليه من نعمه ، ووسع عليه من كرمه فحبس المال فى الخزائن ، ومنع الفقراء حقوقهم ، هو إنسان يسعى فى إهلاك نفسه ، وإهلاك وطنه ، فالمال قوام الحياة ، تنتظم به شئونها ، وتستقيم أمورها ، فمن كنزه وادّخره فى المصارف ، وحُرِم المتعة به فى نفسه وأهله وأمته ، شقى به فى دنياه وأخراه . أما فى الدنيا فالبخيل ينظر الناس إليه بازدراء ، حياته شقاء ، وعيشه بلاء ، إن مرض لا يذهب إلى الطبيب ، وإن رأى حلة يتجمل بها منعه بخله من اقتنائها ، لا يهنأ بطعام تشتهيه نفسه ، ولا بمسكن ينشرح له صدره ، لا يذكر إذا ذكر الكرام ، فهو الذميم المذموم ، والغنى المحروم ، إن مرض لا يعوده أحد ، يتمنى له الناس كل شر ، ملعون على كل لسان ، محتقر فى كل زمان ومكان . قال بعض الحكماء : البخل جلباب المسكنة . وقال غيره : البخيل ليس له خليل . وقال آخر : البخيل حارس نعمته ، وخازن ورثته . وقال الشاعر :

إذا كنت جماعاً لمالك ممسكا ... فأنت عليه خازن وأمين

تؤديه مذموماً إلى غير حامد ... فيأكله عفواً وأنت دفين

وقال غيره :

ويظهر عيب المرء فى الناس بخله ... ويستره عنهم جميعاً سخاؤه

تغط بأثواب السخاء فإننى ... أرى كل عيب والسخاء غطاؤه

أما شقاؤه به فى الآخرة فهو شقاء يورث الحسرة ، فقد قرن الله البخل بالكفر فقال تعالى : « وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى ، وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى » . وقال تعالى : « وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ ، بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ ، سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » . وقال صلى الله عليه وسلم : « لايدخلُ الجنّةَ بخيل » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « خصلتان لايجتمعان فى مؤمن البخل وسوء الْخُلُق » .

وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى رجلا معلقاً بأستار الكعبة يقول يارب اغفر لى وما أراك تفعل ، فقال : ولم تراه لايفعل ما شأنك ؟ قال إنى رجل صوّام قوام كثير المال ، إلا إنى إذا نزل بى ضيف أو أتانى سائل فكأنما تشتعل فى قلبى شعلة نار . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : تنح عنى ولا تحرقنى بنارك ، فوالذى أرسلنى بالهدى لو صمت ألف عام وصليت ألف عام بين الركن والمقام وجرت من دموعك الأنهار ثم مت وأنت لئيم ؛ أكبك الله فى النار » .

وأشد آية أراها نزلت فى البخلاء هى قوله تعالى : « وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ

وَظُهُورُهُمْ هَذَا ما كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَكْنِزُون »

وإذا قالوا : « البخيل بعيد عن الإيمان ، مكذب بالقرآن ، فهذا حق لاشك فيه ، فالمؤمن يقرأ قوله تعالى : « مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مائَةُ حَبَّةٍ واللهُ يُضاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ واللهُ واسِعٌ عليم » والمؤمن الذى يقرأ قوله سبحانه « وما أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُه » . والمؤمن الذى يسمع قول الله تعالى فى الحديث القدسى : « ياعبدى أنفق أنفق عليك » يبادر بإنفاق ماله على المحتاجين والمنكوبين وفى سبيل الله وابن السبيل .

ومن الطريف ما أرويه لك عن السيد الجواد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فقد قال : « بينا رجل يمشى بفلاة من الأرض فسمع صوتاً فى سحابة يقول : اسق حديقة فلان فتنحى ذلك السحاب فأفرغ ماءه فى حرَّة — أرض بها حجارة سود — فإذا شرجة — مسيل الماء — من تلك الشراج قد استوعبت الماء كله ، فتتبع — الرجل — الماء ، فإذا رجل قائم فى حديقته يحول الماء بمسحاته . فقال له : يا عبد الله ! ما اسمك؟ قال : فلان . للاسم الذى سمع فى السحابة . فقال له ياعبدالله لم تسألنى عن اسمى ؟ فقال إنى سمعت صوتاً فى السحاب الذى هذا ماؤه يقول اسق حديقة فلان لاسمك ، فما تصنع فيها فقال : إما إذ قلت هذا

فإنى أنظر إلى ما يخرج منها فأتصدق بثلثه وآكل أنا وعيالى ثلثه وأرد فيها ثلثه » رواه مسلم .

فانظر أرشدك الله إلى الخير . كيف يكافئ الله من يؤدى حق ماله فيبذله لمستحقيه من الفقراء والمساكين ، فيكلف ملكا يسوق السحاب ليسقى حديقته . وعكس هذا تماماً قصة أصحاب الحديقة التى قصها الله علينا فى (سورة ن) : « إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ » الآيات . وخلاصة القصة أن رجلا صالحا كانت له حديقة جعل من ثمرها نصيباً فى كل عام للفقراء ، فبارك الله له فيها ، فلما مات عزم أولاده على حرمان الفقراء من نصيبهم وأقسموا ليصرمُنَّها مصبحين قبل أن يستيقظ الفقراء ، وانطلقوا إليها يحدث بعضهم بعضا فى همس قائلين لايدخلنَّها اليوم عليكم مسكين ، فحرمهم الله ثمارها وأهلك خيراتها قبل أن يدخلوها ، جزاء حرمانهم للفقراء ، فلما رأوها وقد حلَّ بها الخراب والدمار قالوا إنا لضالون ، بل نحن محرومون ، ثم تابوا واستغفروا وعزموا على منح المساكين نصيبهم ، فرحمهم الله وأعاد إليهم حديقتهم وثمارها . اقرأ الآيات فى (سورة ن) .

وما انتشرت المبادئ الهدامة والشيوعية الممقوتة إلا بسبب شح أرباب المال ، ولا يستطيع أحد مقاومة هذه المبادئ الضارة إلا بالرجوع إلى إرشادات الإسلام الذى يحث على البرّ بالفقراء ومنحهم مافرضه الله فى أموال الأغنياء .

ومن نوادر البخلاء ما قيل أن أعرابياً أقبل على رجل و بين يديه تين ، فغطى التين بكسائه ، فجلس الأعرابى ، فقال له الرجل : هل تحسن من القرآن شيئا . قال نعم فقرأ « والزيتون وطور سينين » فقال : وأين التين ؟ قال هو تحت كسائك . وقيل : كان رجل بخيل إذا وقع فى يده درهم أو دينار نقره بيده ثم وضعه على كفه ويقول سبحان الله هذا أجمل الأشياء إلى الله فيه شفاء ووقاء يانور عينى وثمرة فؤادى ، كم مدينة دخلتها ، وكم يد وقعت فيها فلم يعرفوا قدرك ، فداك أبى وأمى ، الآن استقرت بك الدار ، واطمأن بك المزار ، ونجوت من خطر الأسفار وأيدى التجار ، لك البشارة فى كيس ملمع وصندوق منقش ، وكان يقبله ويضعه فى الصندوق .

وقيل : اجتمع ثلاثة من البخلاء ، فقالوا : تعالوا ننظر أينا أبخل فقال أحدهم : أنا أبخلكم لأنى أبخل بمالى على الناس . وقال الآخر : بل أنا أبخل لأنى أبخل بمال الناس على الناس . وقال الثالث : أنا أبخل بمال الناس على نفسى . فأجمعوا على أنه أبخلهم جميعاً .

أرأيت بعدماتقدم بك حالة البخل والبخلاء ؟ بؤس فى الدنيا وعذاب فى الآخرة . من أجل ذلك تعوّذ منه النبىّ الأكرم وأمرنا بالتعوّذ والتحصن من شره ببذل المال والسماحة به فيما يحسن الذكر ويعلى القدر ويدخل الجنة . وبعد ذلك ننتقل بك إلى الأمر السابع الذى أمرنا بالتحصن من شره والتعوذ بالله من ضرره وهو :

غلبة الدّين

الدّين وقاك الله شره — همّ بالليل وذل بالنهار ، يذهب بعز الرجال ويطأطىء رؤس الأبطال ، ينغص الحياة ، ويعفر الجباه ، تذكره غصة ، والتفكر فيه بلية ، إذا غلب المرء ملك عليه نفسه وعقله وفكره وأفقده صوابه ورشده — والمدين واحد من اثنين رجل استدان لغير حاجة أو حاجته إشباع شهواته وإرضاء نزواته ، كمن يريد التشبه بالعظماء فيستدين ليشترى سيارة فاخرة ، أو بيتاً أنيقاً ، أو حلة جميلة ، أو يحب الظهور فيستدين ليجهز ابنته بما فوق طاقته ، وقد يكون فى نيته عدم السداد . فيسد الله عليه أبواب الرزق ، ويضيق عليه الأمر ، فيصبح والذل فى ركابه ، والبؤس مخيم على بابه . وثانى الرجلين : رجل استدان لضرورة ملحة ، كمن نزلت به شدة فهو فى حاجة إلى قوت عياله ، أو إصلاح حاله ، وفى نيّته السداد ، يعمل جاهداً لتحصيل ما يسدد ديونه فهو يتلمس الطرق للكسب الحلال الذى به يحفظ نفسه ويتخلص من دينه ، فهذا وأمثاله ، اللهُ معينه ورازقه يفتح له أبواب الرزق ، ويسهل له طرقها ، حتى يقضى دينه ، ويزيل همه « وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ، وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ » « وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا » يقول النبى صلى الله عليه وسلم : (من أخذ أموال الناس يريد سدادها سدد الله عنه ، ومن أخذ

أموال الناس يريد إتلافها أتلفه الله تعالى) فإن كنت عاقلا فلا تستدين إلا لضرورة ملحة ، فقد روى أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا جيئ له برجل ميت ليصلى عليه ، سأل : هل هو مدين ؟ فإن قالوا نعم امتنع من الصلاة عليه حتى تسدد ديونه .

والرجل لا يكون عزيزاً ولأحد عليه منة (دين) إذ الدين قلادة من الذل فى عنق الأحرار ، واليد العليا خير من اليد السفلى ، فإذا أُمرنا بالتعوذ من شر الدين وغَلبته فقد أمرنا بالتحصن من أمر عظيم يلحق بالمرء المذلة والهوان ، والتحصن منه يكون بالسعى الدائب لسد حاجاته ، والكد والكدح والضرب فى الأرض لبلوغ غاياته ، وتحقيق رغباته ، مستعيناً بالله متوكلا عليه وهو سبحانه ، لا يضيع أجر العاملين المجدين ، ولا يمنع عونه عن الساعين المخلصين ، ونقدم إليك الأمر الثامن والأخير مما أمرنا بالتعوذ من شره وهو :

قهر الرجال

قد يكون بين شخص وآخر خصومة فى قضية ، فيتغلب أحدهما الآخر ، فيقال فى المغلوب مقهور ، وفى الغالب قاهر ، وفى ميادين الحروب ينتصر جندى على آخر فالمغلوب مقهور والغالب قاهر . ويستبد إنسان بآخر . ويذل القوى الضعيف ، ويستخدم الرئيس المرؤس لمآربه وأغراضه ، ويتغلب العدو على عدوه ، فيقال فى الكل مقهور

وقاهر ، وغلبة الرجل الرجل وقهره . فيها من الإذلال والمهانة مالا يحتمله الأحرار ، فأمرنا أن نتعوّذ بالله من أن يغلبنا خصومنا فى القضاء والمنازعات ، ما دمنا على الحق وخصومنا على الباطل ، وأمرنا بالتحصن من أن يتغلب علينا عدونا فيسلب الأموال ويحتل الديار ، فيصبح السيد ونحن عبيده ، فنعوذ بالله من قهر الرجال ، ونتحصن به من كيد الأعداء ، وإذلال الأقوياء للضعفاء ، نعوذ به من أن يستبد بنا ظالم فيذلنا ونحن الأعزاء ، ونسأله سبحانه أن يمدنا بقوته ، وينصرنا بقدرته ، ويحفظنا بعنايته ، ويجعل لنا الغلبة على المفسدين والظالمين .

وبعد فهذه ثمانية أمور علمها رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى أمامة وأمره أن يقولها فى الصباح والمساء ليتخذ منها غذاء لروحه . وصفاء لنفسه — وكلنا مثل أبى أمامة — والاستعاذة بالله من هذه الأمور الثمانية يجب أن تكون بالقلب قبل اللسان . ولا فائدة فى التعوذ منها بلسانك . إن كنت لطريقها سالكًا وعليها مقيماً فتخلّص من همومك وأحزانك بصرف وقتك فيما يفيد وتحصن من العجز والكسل بالجد والنشاط ، وتطهر من البخل والجبن ببذل المال والروح فيما يسعدك ويسعد أمتك وتحلّ بالعزة والكرامة فلا تستدين إلا لضرورة ملحة ولا تذل لمخلوق . وكن رجلا تهابك الرجال . وبطلا تحسب حسابك الأبطال وقل فى الصباح والمساء ليقوى هذا المعنى فى ذهنك ، وينساب إلى قلبك :

اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحزن . وأعوذ بك من العجز والكسل وأعوذ بك من البخل والجبن . وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال .

الفرج بعد الشدة

قال أبو جعفر أحمد بن يوسف فى كتابه المكافأة — حدثنى الحسنُ بن مسلم — ورأيته بعد أن علت سنه و بلغ المائة سنة . وكان صحيح التمييز سليم الحواس — قال — ألحّ غزوُنا على الروم . ونالهم منا مكروه عظيم ، فوجد (أى حزن وغضب) متملِّك الروم من هذا ، ونذر أن يُخْرِبَ اقريطش (جزيرة كريت) ولو أنفق ذخائر مملكته ، فنظر إلى راهب محبوب تتعالَمُ الروم زَهَادَته ، فأنزله من مُتعبَّده وضم إليه أكثر جيوشه ، فوافَى جَمْعٌ لم يُحِطْ بأقريطش مثلُه قط ، ففزعنا إلى غلق الحصن ، وتسرّع الروم إلى بناء مساكن لهم ، وخرجوا من المراكب وغلبونا على ميرة (قوت) البلد وما يكون فى جواره ، واشتدَّ الحصار ، ونَزَع السعرُ (ارتفع) وتحلّق المأكول (قل وروده) وشاع الجهد ، ثم زادت المكابرة حتى أكل الناس مامات من البهائم جوعاً ، وأجمعوا على أن يفتحوا الباب له (جَيش الأعداء) فقال لهم شيخ . إنى قد أراكم قد حُرِمْتُم التوفيق فى قوّتكم وضعفكم والصواب أن تقبَلُوا منى ما أشير به عليكم ، قالوا : قل . قال : تزكّوا لله — أى تطهروا وأصلحوا

نفوسكم — من قبيح ما يحملكم عليه تظاهُرُ النعمة والسلامة ، وأخلصوا له إخلاصَ من لا يجد فرجةً إلا عنده ، وأفصِلوا صبيانكم من رجالكم ، ورجالكم من نسائكم ، فلما ميّزَهم هذا التميزَ صاح بهم : عجُّوا (ارفعوا أصواتكم) بنا إلى الله ، فعجوا عجةً واحدةً : وبكى الشيخُ وبكى أكثر الناس ثم قال : عجّوا أخرى ولا تشتغلوا بغير الله . فعجوا عجة أعظم من الأولى ، وبكى الناس أيضاً ، ثم عج الثالثة وعج الناس معه وقال تشرفوا — تطلعوا — من الحصن ، فإنى أرجو أن يكونَ اللهُ قد فرّج عنّا ، فخلف لى الحسن : أنى شرّفت وتطلعت مع جماعة فرأيت الروم قد قوّضوا رحالهم ، وركبوا مركبَهُم ، وفُتِحَ باب الحِصن فوجدوا قوماً من بقاياهم فسألوهم عن حالهم ، فقالوا : كان عميد الجيش (قائده) بأفضل سلامةٍ إلى اليوم حتى سَمِعَ ضَجَّتكم فى المدينة ، فوضع يده على قلبه وصاح : قلبى قلبى . ثم طفا — مات — فانصرف من كان معه إلى بلد الروم . وخرجنا عن الحصن فوجدنا فى تلك الأبنية من القمح والشعير ما وسع المدينة وأعاد إليها خصبَهَا وكُفينا جماعتهم من غير قتال .

٢ — وقال أبو جعفر فى كتابه المذكور :

وحدثتنى أمُّ آسيةَ قابلةُ أولاد خُمَارَوَيه بن طولون — وكان لها دِينٌ . ومذهب جميل . ومحل لطيف من خمارويه . وقد تذاكرنا لطف الله عز وجل فى أرزاق عباده وحسن الدفاع عنهم — أنه تزوجها

وأختها . أخوان — فأقبلتْ حالُ زوْج أختها . وأدبرت حالُ زوجها . قالت وتوفى زوجُها بأسوأ حالة . وخلّف لها بناتٍ وتعذّرَ عليها تجهيزُه من اختلاله . وتوفّى زوجُ أختها . وقد خلّف (كثيراً) من العيْن والمساكن والأوانى لأولاده قالت : فكنت أجاهد فى مئُونة ولدى : وإذا وقف أمرى صرتُ إلى أختى . فقلت : أقرضينى — سلفينى — كذا وكذا استحياءً من أن أقول لها : هَبى لى . ودخل شهرُ رمضان . فلما مضى نصفه اشتهى صبيانى حلواء فى العيد . فصرت إلى أختى فقلتُ لها : أقرضينى ديناراً أعمل به للصبيان حلواء فى العيد . فقالت : يا أختى تغيظينى بقولك : أقرضينى . وإذا أقرضتك من أين تعطينى أمن غلّة دُورك أو بُستانك ؟ لو قلتِ هَبى لى كان أحسنَ . فقلت لها : أقضيك من لطف الله تعالى الذى لا يحتَسَبُ ، وجُودِه الذى يأتى من حيث لا يرتقب . فتضاحكت وقالت : يا أختى ، هذا والله من المُنَى ، والمُنَى بضائع الحمقى . فانصرفتُ عنها أجُرّ رجلَىّ إلى منزلى . وكان فى جوارنا خادمٌ أسودُ لبنت اليتيم امرأةِ خمارويه ، فلمّا بلغتُ حارتنا قال لى : فى جوارنا امرأةٌ تُطْلَق (أصابها المخاض) قد أوجَعَتْ قلبى ، أُدخلى إليها فليس لها قابلة (داية) قالت أمّ آسِيَةَ ووالله ما عانيْت امرأة تعانى الولادة قط ، فدخلت إليها فمسحتُ جوفَها وأجلستُها كما كان القوابل (الدايات) يُجْلِسْنَنِي فى طلقى فولدت من ساعتها ، فلما أمسك — امتنع — صياحُها . جاء الخادمُ يسأل عنها . فقلت : قد ولدت ،

فعجب من سرعة أمرها ، وظن أنَّ هذا شيئاً قد قصدته بحذقِ صناعةٍ ، ولُطْفٍ فى مِهْنَةٍ . فمضى إلى سيدته بنت اليتيم ، وكانت قربت ولادتها بأول مولود لأبى الجيش ، وقد عُرض عليها قوابلُ (دايات) استثقلتهنّ ، فقال : فى جوارنا قابلةٌ أحضرناها لمرأةٍ فى حارتنا تُطلَق (تلد) فوضعت يدَها على جَوفها فسقط ولدُها ، ووصفنى بما لا يُوجد فى قدرة أحد إلا بمعونة الله عز وجل ، فقالت للخادم : إذا كان غدٌ فجئنى بها . فأتى الغلام ودعانى إلى مولاته فأجبتُ بإنشراح صدرٍ وثقةٍ بالله تعالى ، فاستخفّت رُوحى وقالت إلى التّمام — أى الوصول إلى تمام الولادة — تقديرُ الله تبارك وتعالى ، ثم شكَتْ مَغَساً (وجع فى البطن) تجدُه من قربت ولادتها — فأدخلت يدى فى ثيابها ومسحتُ جوفها وعجَجْتُ إلى الله تعالى فى سرّى — التجأت إليه — داعية له بتوفيقى ، وكنت أدعو ، ومن حضَر من أهلها يتوهّم أنى أرقِى — والرُّقْيَا — أن يعوذ المريض ونحوه بكلمات وأدعية لإزالة الضر عنه ، فسكن ما وجَدَتْه وتبرّكت بى ، ودخل إليها مُخارويه . وقال : ما وجدْتِ ؟ فقالت مغساً فى جوْفى فوضعت قابلةٌ اخترتُها يدَها عليه فزال ما أجدُه وأخرجتْنِى إليه (وكان قريباً من حرَمِه) فقال لى : أرجو أن يخلّصها الله عز وجل ببركتك .

قالت أُمُّ آسيَةَ ودخلنا فى العشر الأواخر من شهر رمضان وقد تمسّكْتُ من الإخلاص لله تعالى بما لا يصل إليه من ساح فى الجبال

من الزهاد والعباد ، خوفاً من شماتة أختى بي ، فلم يَمضِ إلا ثلاثة أيام حتى مَخِضَتْ (أخذها الطلق) فأجلستُها على كرسى الولادة (وكان مقدار طلقها ساعتين) فولدت ابناً أسهلُ ولادةٍ ، وأبو الجيش يقوم ويقعدُ ويذهبُ ويجىء ، فلما ولَدَتْ وكانت تتوقع من الولادة أمراً عظيما ، فلما ألقَتْهُ قالت لى : هذا الطلق الأخير ؟ قلت نعم . فقبّلت عينىّ من الفرح وصاح خمارويه أخبرينى يامباركة بخبرها ؟ فقلت وحياة الأمير إنها فى عافيةٍ ، وقد ولدت غلاماً سوى الخلق بحمد الله . فوّجّه إلىّ بألف دينار ، وألَحَّ أبو الجيش فى النظر إليها لفرط إشفاقه عليها ، فاستوقفتُه إلى أن نقلتُ حوائج الولادة وقلت لها يا سيدتى اضحكى فى وجهه عندما ترينه ، فلما وصل إليها ضحكت فى وجهه فتقدم بصدقة بمال كثير عنها وعن ولَدِه . وقالت لى أُمُّ آسية : لما كان يوم الأسبوع ووقع قبل العيد بيوم واحد ، أمَرَتْ لى بخمسمائة دينار وحصل من أتباعها ألف دينار ، فحصل لى ألفان وخمسمائة دينار ، وخلَعَت علىّ وسائر حَشَمِها أكثر من ثلاثين خلْعَة وحمل إلىّ مما أُعِدَّ للعيد ثلاثُ موائدَ خاصةٍ وانصرفتُ إلى منزلى فأرسلتُ إلى أختى مائدةً ، ووافتنى مهنّئةً وقد تقاصر طولها (تواضعت) فأريتها ماحصلَ لى من المال والخِلع والطيب ، وقلت لها : يا أختى ، أنكرتِ علىّ قولى أقرضينى : ومن هذا كنتُ أقضيك ، فلا تستصغرى منْ كَانَ الله مادّته وعليه مدارُ ثقتِه وتعويضه . واكتسبت هذه المرأة بمحلّها من أبى الجيش

مالاً كثيراً ، وجاهاً عريضاً ، قضت به حوائج خطيرة لجماعة من وجوه البلد .

٣ — عن عمر رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : بينما ثلاثة نفر ممن كان قبلكم يمشون إذ أصابهم مطر . فآووا إلى غار فانطبق عليهم . فقال بعضهم لبعض : إنه والله يا هؤلاء لا يُنْجِيكم إلا الصدق . فليدع كل رجل منكم بما يعلم أنه قد صدق فيه فقال واحد منهم : اللهم إن كنت تعلم أنه كان لى أجير عمل لى على فرق من أرز — الفرق مكيال — فذهب وتركه وإنى عمدت إلى ذلك الفرق فزرعته فصار من أمره أنى اشتريت منه بقرا ، وإنه أتانى يطلب أجره . فقلت له : أعمد إلى تلك البقر فسقها . فقال لى : إنما لى عندك فرق من أرز فقلت له : أعمد إلى تلك البقر فإنها من ذلك الفرق . فساقها فإن كنت تعلم أنى فعلت ذلك من خشيتك ففرِّج عنا . فانساحت عنهم الصخرة . فقال : الآخر : اللهم إن كنت تعلم أنه كان لى أبوان شيخان كبيران وكنت آتيهما كل ليلة بلبن غنم فأبطأت عليهما ليلة . فجئت وقد رقدوا — ناموا — وأهلى وعيالى يتضاغون من الجوع . فكنت لا أسقيهم حتى يشرب أبواى فكرهت أن أوقظهما وكرهت أن أدعهما فيستكنا لشربتهما فلم أزل أنتظر حتى طلع الفجر . فإن كنت تعلم أنى فعلت ذلك من خشيتك ففرِّج عنا : فانساحت عنهم الصخرة حتى نظروا إلى السماء . فقال الآخر :

اللهم إن كنت تعلم أنه كان لى ابنة عم من أحب الناس إلىّ وإنى راودتها عن نفسها فأبت إلا أن آتيها بمائة دينار فطلبتها حتى قدرت فأتيتها بها فدفعتها فأمكنتنى من نفسها فلما قعدتُ بين رجليها فقالت : اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه فقمت وتركت المائة دينار . فإن كنت تعلم أنى فعلت ذلك من خشيتك ففرج عنا ففرج الله عنهم فخرجوا .

سقت لك قصتين وحديثاً شريفا ومن الكل تعرف أن العسر يعقبه اليسر . وأن الضيق يأتى بعده الفرج والمطلوب منك عند الضيق والعسر أن تلجأ إلى ربك وتتوسل إليه بصالح عملك . وتخلص له فى التضرع . فإنك إن فعلت ذلك أفاض عليك من رحمته ما يزيل ضرك ويفرج كربك . وتأمل ما قصه الله تعالى عن أيوب عليه السلام . فإنه لما اشتد به البلاء . وتضاعفت عليه المحن . قال : « رَبِّ إِنِّى مَسَّنِيَ الْضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ » فاستجاب له مولاه وكشف ضره ونجاه وأثنى عليه فى كتابه فقال : « نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّاب » .

وإبراهيم أبو الأنبياء — لما كان من النار التى أعدوها لحرقه قاب قوسين أو أدنى جاءه جبريل عليه السلام يقول له : ألك حاجة ؟ فقال له : أما إليك فلا . وأما إلى الله فعلمه بحالى يغنى عن سؤالى . فقال الله تعالى للنار : « كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ » فلا تَشْكُ أمرك عند الضيق والعسر إلا لمولاك واعمل بنصيحة من يقول :

لا تكثر الشكوى إلى الصديق وارجع إلى الخالق لا المخلوق لا يخرج الغريق بالغريق .

والأمور إذ تناهت فى الشدة كان ذلك بشيراً بالفرج .

روى ابن عباس رضى الله عنهما أن سليمان بن داود عليهما السلام لما استكدّ شياطينه فى البناء شكوا ذلك إلى إبليس لعنه الله . فقال : ألستم تذهبون فرغا وترجعون مشاغيل ؟ قالوا : بلى . قال : ففى ذلك راحة فبلغ ذلك سليمان عليه السلام فشغلهم ذاهبين وراجعين . فشكوا ذلك إلى إبليس لعنه الله فقال : ألستم تستريحون بالليل ؟ قالوا : بلى . قال : ففى هذا راحة لكم نصف دهركم . فبلغ ذلك سليمان عليه السلام فشغلهم بالليل والنهار . فشكوا ذلك إلى إبليس لعنه الله فقال : الآن جاءكم الفرج . فما لبثوا أن أصيب سليمان عليه السلام ميتاً على عصاه . هذه حادثة مع نبى من أنبياء الله يعمل بأمره وينفذ وحيه فى أعدائه . فكيف بالحوادث التى يسوقها القدر إذا تناهت فى الشدة . ليس بعدها إلا الفرج .

إنما الدنيا هبات وعوار مستردّة
شدة بعد رخاء ورخاء بعد شدة

وصدق الله العظيم : « إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ، إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرا »

ويقول النبى الكريم : « واعلم أن النصر مع الصبر . والفرج مع الكرب وأن مع العسر يسرا » .

ويسوقنا الحديث فى هذا كما رأيت أنه ينبغى للعبد أن يلجأ دائماً فى تفريج كرباته إلى الله — لأنه وحده القادر على تفريج الكرب أما غيره من المخلوقين فهم أعجز من أن يحققوا رجاء طالب . أو يكشفوا الضر عن مكروب — يقول الله تعالى : « أمّن يجيب المضطر إذا دعاه » والجواب لا أحد سوى الله فما تراه من جهلة المؤمنين من التسمح بالأعتاب والتضرع إلى الموتى من الصالحين ، وسؤالهم قضاء حاجاتهم ، وتحقيق رغباتهم ، فجهل بالدين ، وانصراف عمن بيده ملكوت السموات والأرض والإعطاء والحرمان ، إلى عجزة لا يقدرون على دفع الضر عن أنفسهم فَضْلاً عن غيرهم والنبى الكريم عرفنا من نسأله حاجاتنا ونضرع إليه فى مهماتنا فقال (إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله) وفى الكتاب العزيز يقول الله تعالى : « وإذا سألك عبادى عَنِّى فإنّى قَرِيب ، أُجِيبُ دَعْوَةَ الدّاعِ إذَا دَعَان » ويقول سبحانه « أدْعُونِى أسْتَجِبْ لَكُم » فمن التفت إلى غير الله — بعيد أن يحقق مناه ويجيب دعاه : وترى فيما أقصه عليك أن الله تعالى عاقب بعض أنبيائه على هفوات هى خلاف الأولى فى مثل ما نتكلم فيه فقد روى صاحب القوت رحمه الله ، أن الله تعالى أوحى إلى يعقوب عليه السلام : (أتدرى لم فرقت بينك وبين ولدك يوسف . قال لا . قال لقولك لإخوته ، أخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون — لم خفت عليه الذئب ولم ترجنى له — ولم نظرت إلى غفلة إخوته ولم تنظر إلى حفظى

ورعايتى له (وتدرى لم رددته عليك قال لا . قال لأنك رجوتنى وقلت عسى الله أن يأتينى بهم جميعا . وبما قلت ، يا بنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله) وتأمل ما أصاب يوسف عليه السلام حين قال لصاحب الملك اذكرنى عند ربك (سيدك) فإن الشيطان أنساه أن يذكره عند سيده : فعاقب الله يوسف فلبث فى السجن بضع سنين واعلم أنه لا يروِّج لسؤال المخلوقين وترك سؤال الله إلا أصحاب الأضرحة التى تدر عليهم من المال ما يؤدى بهم إلى النار وغضب الجبار — فهم يذيعون بين العامة من كرامات أصحاب القبور ، وشفائهم المرضى وقضائهم الحاجات مالا يقدر عليه إلا القادر المقتدر صاحب الملك والسلطان الذى بيده الخير وهو على كل شىء قدير .

والتبرك بالصالحين إنما يكون بدراسة سيرهم ومحاولة التشبه بهم فى أعمالهم الصالحة . لا بسؤالهم والتضرع إليهم ولم يثبت أن واحداً من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم سأل غير الله — وهؤلاء هم القدوة وفيهم يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : — أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم — وأحسب أننى أنرت لك سبيل الفلاح وأخذت بيدك إلى طريق الصلاح ، والتوفيق بيد الله فسله أن يجنبك الزلل ، ويدفعك إلى خير العمل ، ويهديك صراطاً مستقيما .

جابر عثرات الكرام

تنزل الشدة بالمرء فيتلفت إلى إخوانه الذين تربطهم به رابطة المودة ، عسى أن يواسوا كربته ، ويخففوا مما نزل به فمنهم الكريم الذى يبادر بالمواساة ، ومنهم اللئيم الذى يتنكر لصديقه ، فإن لقيه أعرض عنه كأنه لا يعرفه ، وفى مثل هذا يقول الشاعر :

كم من أخ لك ليس تنكره ما دمت فى دنياك فى يسر
فإذا عدا والدهر ذو غير دهرٌ عليك عدا مع الدهر
فارفض بإجمال مودة من يقلى المقل ويعشق المثرى
وعليك من حالاه واحدة فى العسر إما كنت واليسر

وفى القصة الآتية ترى كيف يكون الوفاء ، وكيف يواسى الأخ أخاه إذا ألمت به مُلِمَّة ، ونزلت به فاقة ، كان خزيمة بن بشير الأسدى مقيما بالجزيرة ، وكان معروفا بالمروءة والكرم ، ومشهوراً بمواساة من تحل به نكبة ، وكانت نعمته وافرة ، وعيشه رغيد ، فلم يزل على تلك الحال حتى قلب الدهر له ظهر الْمِجَنْ ، فاحتاج إلى إخوانه الذين كان يواسيهم ويتفضل عليهم ، فواسوه حيناً ثم مَلُّوه ، فلما لاح له تغيّرهم أتى امرأته — وكانت بنت عمه — فقال لها : يا بنت العم ! قد رأيتُ من إخوانى جفاء ، وشاهدت منهم تغيراً وإعراضاً ، وقد عزمت على

لزوم بيتي إلى أن يأتيني الموت ، فآوى إلى منزله يتقوّت بما عنده حتى نفد .

وكان عكرمة الفياض والياً على الجزيرة من قبل سليمان بن عبد الملك فجاء ذكر خُزيمة فى مجلس عكرمة وأخبر خبره . فقال : أما وجد خزيمة مواسياً ولا مكافئاً ، ثم لما جنّ الليل عمد إلى أربعة آلاف دينار وركب دابته ومعه غلام يحمل المال حتى وصل إلى خزيمة فدفعها إليه فقال خزيمة من أنت ؟ فقال عكرمة : ماجئت فى هذا الظلام وأريد أن أعرف ؟ فقال خزيمة : آليت — حلفت — لا أقبلها أو أعرف من أنت ؟ فقال عكرمة : أنا جابر عثرات الكرام . قال خزيمة : زدنى إيضاحاً ؟ قال لا ، ثم مضى عكرمة ، فلما رجع إلى منزله وجد امرأته فى قلق وقد ارتابت فى خروجه ليلا ، فعرّفها الخبر وطلب منها الكتمان ليكون عمله لله خالصاً .

أما خزيمة فإنه أصلح من المال شأنه ، ودفع ديونه ، وتجهز إلى سليمان بن عبد الملك ، فلما دخل سلم بالخلافة . فقال سليمان ما أبطأك عنا قال ضيق الحال يا أمير المؤمنين ، إلى أن قيّض الله لى جابر عثرات الكرام . فقال سليمان : لو عرفنا (جابر عثرات الكرام) لأعنّاهُ على مروءته ! .

ثم عقد سليمان لخزيمة الولاية على الجزيرة وعلى أعمال عكرمة . فلما وصل خزيمة إلى الجزيرة نزل فى دار الإمارة ؛ وأمر بأن يؤخذ

عكرمة فيحاسب ، فظهر قِبله أربعة آلاف دينار ، فطالبه خزيمة بها . فقال : مالى إلى ردها من سبيل ، فأمر خزيمة بوضعه فى السجن مقيداً بالأغلال ، فأقام عكرمة فى السجن حتى أضناه القيد ، فلما علمت زوجته بذلك أرسلت جارية إلى خزيمة تقول له : أهكذا يكون جزاء جابر عثرات الكرام ؟ فلما سمع خزيمة ذلك قال وا سوأتاه ! جابر عثرات الكرام غريمى ، ثم ذهب تواً إلى السجن ففك أغلال عكرمة وقبّل رأسه واعتذر إليه ، ثم سارا معاً إلى سليمان ليعرف من هو جابر عثرات الكرام ، فلما عرف القصة قال لعكرمة : لقد كان خيرك له وبالاً عليك ثم عقد سليمان لعكرمة الولاية على الجزيرة وأرمينية وأذربيجان . وقال له أمر خزيمة إليك إن شئت أبقيته ، وإن شئت عزلته . فقال بل أبقيه ، فمكثا عاملين لسليمان مدة خلافته ، وهكذا يكرم الله أهل المروءات ، ويضاعف لهم الجزاء ، ويُجنِّبهم المذلة والهوان ، ويخلد ذكرهم التاريخ على مر الزمان .

وجدير بمن وسّع الله عليه فى الرزق فمنحه مالا أو جاهاً أو منصباً رفيعاً ، أن يحسن إلى عباد الله كما أحسن الله إليه ، لتدوم نعمته ويزداد جاهه وثروته ، وهذا هو :

الشكر

الشكر — شعار الصالحين ، وعلامة اليقين ، و سِمَةُ المتقين ، وسراج المؤمنين ، وهو أن يعلم الإنسان أن النعمة من الله عزّ وجل ، وأن كل النعم ما كثر منها وما قل ، وما ظهر أو خفى من الله تعالى المنعم الحق . قال تعالى : « وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ » ، وقال سبحانه « وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لا تُحْصُوها » ، والشكر نصف الإيمان ، ولعظم منزلته عند الله تعالى قرنه بذكره فقال سبحانه : فاذكُرُونى أذْكُرْكم واشْكُرُوا لِى ولا تَكْفُرُون » ، والشكر خُلُقٌ من أخلاق الله تعالى ، ففى القرآن الكريم « واللهُ شكُورٌ حَلِيم » وهو مفتاح كلام أهل الجنة « وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِى صَدَقَنا وَعْدَه » ، « وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلهِ رَبِّ الْعَالمين » ولندرة المتصفين به قال الله تعالى : « وَلَا تَجِدُ أَكْثَرُهُمْ شاكِرِينَ » ، وقالَ جلَّ شأنه : « وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِىَ الشَّكُور » ، والشكر موجب للزيادة من الخير . قال اللهُ سبحانه : « لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ » .

وفى حديث علّقه البخارى ، يقول النبىّ صلى الله عليه وسلم : « الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر » ،

وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ينادى يوم القيامة ليقم الحامدون فتقوم زُمْرَة فَيُنصب لهم لواء فيدخلون الجنة ، قيل ومن الحامدون قال الذين يشكرون الله تعالى على كل حال » .

obeikandl.com

وخير ما يعطى المرء لساناً ذاكراً ، وقلباً شاكراً » . وروى أن داود عليه السلام قال : إلهى كيف أشكرك وشكرى لك نعمة من عندك ، فأوحى الله إليه الآن قد شكرتنى .

وقد أخذ هذا المعنى محمود الورّاق فأنشد :

إذا كان شكرى نعمةَ الله نعمةً ... علىّ له فى مثلها يجب الشكر
فكيف بلوغ الشكر إلا بفضله ... وإن طالت الأيام واتصل العمر
إذا مسّ بالسراء عمّ سرورها ... وإن مسّ بالضراء أعقبها الأجر
فما منهما إلا له فيه نعمة ... تضيق بها الأوهام والسر والجهر

وقد قدّمتُ لك أن نعم الله عليك لا تحصى وفى كل نعمة شكر واجب ، ومن لا يشكر القليل لم يشكر الكثير . قال الله تعالى « وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ » ، والتحديث بنعم الله لا يكون باللسان فحسب كرجل يتناول من الطعام مالذ وطاب ، ويلبس فاخر الثياب ، وينفق المال الكثير فى ملذاته وشهواته ، ويرى بعينيه الجياع والعرايا والمحتاجين ويكتفى بأن يقول بلسانه : الحمد لله ، الشكر لله ، فهذا وأمثاله ليس من الشاكرين .

وفى حكمة إدريس عليه السلام : لن يستطيع أحد أن يشكر الله تعالى على نعمه بمثل الإنعام على خلقه ، ليكون صانعاً إلى الخلق مثل ما صنع الخالق إليه ، فإذا أردت أن تحرس دوام النعمة من الله تعالى عليك ، فأدم مواساة الفقراء وما أحسن قول الأول :

من جاور النعمة بالشكر لم يخش على النعمة مغتالها
لو شكروا النعمة زادتهم مقالة الله التي قالها
لئن شكرتم لأزيدنكم لكنما كفرهم غالها
والكفر بالنعمة يدعو إلى زوالها والشكر أبقى لها

وفى الكتب السالفة يروى أن موسى عليه السلام مرّ فى طريقه — لمناجاة ربه — على رجل لا يجد ما يستر به سوأته ، فلما فرغ من مناجاة ربه ، سأله أن يوسع على هذا الرجل الفقير من فضله فقال الله تعالى لموسى : قل له ، إننى سأبسط له الرزق سنتين ، فأخبر موسى عليه السلام الرجل ففرح فرحاً عظيما ، وأغدق الله عليه الرزق ، فقالت له زوجته — هل لهذا الخير أمد محدود ، أو هو دائم مستمر ، فقال لها : إن الله تعالى أخبر موسى عليه السلام ، أن مدة هذا الخير سنتان فقالت وماذا عزمت ، قال عزمت على أن نشترى فى الجهة الفلانية عقارا : وفى البلد الثانى نضع مالا وفى البلد الثالث — نبنى دورا : فإذا فقد شىء وجدنا بدله فى جهة أخرى فقالت له : إن الذى أخبر موسى بأن النعيم الذى منحنا إياه لا يدوم إلا سنتين — قادر على محو كل ما عزمت عليه فى أقل من طرف عين لأنه على كل شىء قدير . وأرى أن نبذل مما أعطانا للفقراء والمساكين . فإذا فقدنا النعمة وجدنا من يعطف علينا ويذكرنا بالخير — وأشارت على زوجها ببناء دار فسيحة لها أربعة أبواب فلما تم لها ما أرادت . نادى مناديها فى الناس

— هذه دار تطعم الجائع وتكسو العارى ، وتواسى المحتاج ، وكانت هى وزوجها يقومان بخدمة الفقراء وتقديم الطعام لهم . فزاد الخير ومضت سنتان ومثلها والخير فى ازدياد وبعد مدة طويلة وسنين عديدة مرّ موسى عليه السلام . على الرجل وكان موسى على موعد لمناجاة ربه . وقد رأى النعمة التى غمر الله بها الرجل فلما فرغ من المناجاة قال : يارب أخبرتنى أن عبدك فلان يكون فى سعة من العيش سنتين ثم يعود إلى فقره . وها قد مضت أعوام والخير عنده يزداد فما سبب ذلك فأوحى الله إلى موسى . يا موسى — فتحت لهذا العبد بابا من الخير . ففتح له أربعة أبواب أيكون العبد أكرم من سيده ألست أنا الذى يقول : « لئن شكرتم لأزيدنكم » .

فشكر نعمة المال . أن تبذله لمستحقه . وشكر نعمة العين . إذا رأيت بها خيراً ذكرته ، وإذا رأيت بها شراً سترته . وشكر نعمة الأذن . إذا سمعت بها خيراً حفظته ، وإذا سمعت بها شراً نسيته . وشكر نعمة الجاه أن تظل به من لاجاه له ، فتقضى له ما هو فى حاجة إليه وتسعى له فى الخير — ومن كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته .

وحق على من أحسن إليه الشاكر أن يشكره ، فإنه من لم يشكر الناس على إحسانهم — لم يشكر الله ، فشكر المحسن يحمله على الزيادة فى الإحسان ، منح رجل رجلا أعرابياً خيراً فقال له الأعرابى .

لا أبلاك الله ببلاء يعجز عنه صبرك ، وأنعم عليك نعمة يعجز عنها شكرك وأنشد .

سأشكر لا أنى أجازيك مُنعما
بشكرى ولكن كى يزاد لك الشكر
وأذكر أيّاماً لدىّ اصطنعتها
وآخر ما يبقى على الشاكر الذكر

ومن أعظم الشكر أن نشكر الله جل جلاله ، على نعمة الإسلام وعلى تشريفنا بالانتساب إلى خير الأنام سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وشكر الله تعالى — طاعته بامتثال أمره ، واجتناب نهيه والتمسك بكتابه والتسمح بجنابه والوقوف ببابه هذا ومن مظاهر الشكر .

السخاء

السخاء والكرم والجود والإيثار — كلمات ألفاظها جميلة ومعانيها نبيلة — حديثها عذب يغذى الأرواح ويشرح الصدور — من اتصف بها حاز الفضائل كلها ، تخلد الذكر وتبقى لسان صدق لأصحابها . إن ماتوا فهم فى القلوب أحياء وإن عاشوا فهم فى أعين الناس عظماء .

فالسخاء والكرم والجود حلية النبلاء . وصفة الأنبياء وقد قيل : سادات الناس فى الدنيا الأسخياء وفى الآخرة الأتقياء .

وقال بعض البلغاء سخاء الرجل يحببه إلى أضداده وبخله يبغضه

إلى أولاده ، السخاء حصن الأمان ، ودليل الإيمان ، يغطى السوآت ويستر الذلات . والبخل يحجب المحاسن ويظهر العيوب وفى هذا يقول الأول :

ويظهر عيب المرء فى الناس بخله ويستره عنهم جميعاً سخاؤه
تغط بأثواب السخاء فإننى أرى كل عيب والسخاء غطاؤه

وفى مدح الأسخياء قال الله تعالى : « فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى » . وفى الحديث القدسى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قال جبريل عليه السلام : يقول الله تعالى : « إن هذا دين ارتضيته لنفسى . ولن يصلحه إلا السخاء وحسن الخلق فأكرموه بهما » ، وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . خلقان يحبهما الله عز وجل وخلقان يبغضهما الله عز وجل . فأما اللذان يحبهما الله تعالى فحسن الخلق والسخاء وأما اللذان يبغضهما الله فسوء الخلق والبخل . وإذا أراد الله بعبد خيراً استعمله فى قضاء حوائج الناس ، ويقول النبى صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى (اطلبوا الفضلَ من الرُّحماء من عبادى تعيشوا فى أكنافهم فإنى جعلتُ فيهم رحمتى ، ولا تطلبوه من القاسية قلوبهم فإنى جعلت فيهم سخطى) وعن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (تجافوا عن ذنب السخىِّ فإن الله آخذٌ بيده كلما عثر) وقال صلى الله عليه وسلم : (الرزقُ إلى مُطعِمِ الطعام أسرع من السكين فى ذروة البعير

وإن الله تعالى ليباهى بمطعم الطعام الملائكة عليهم السلام) وفى حديث آخر يقول النبى صلى الله عليه وسلم : (إن السخىّ قريب من الله ، قريب من الناس ، قريب من الجنة بعيد من النار . وإن البخيل بعيد من الله ، بعيد من الناس ، بعيد من الجنة قريب من النار . وجاهل سخى أحب إلى الله من عالم بخيل) وأوحى الله إلى موسى عليه السلام . لاتقتل العامرى فإنه سخى . وحد السخاء ، بذل المال فى الأمور المحمودة دون مقابل أو عوض يدعو إليه سماحة النفس وسخاؤها قال الله تعالى : « وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » وفى بعض روايات الحديث قال صلى الله عليه وسلم لعدىّ بن حاتم الطائى (رفع الله عن أبيك العذاب الشديد لسخائه) وبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الزبير إمساك عن البذل والعطاء فجذبه من عمامته وقال : يا زبير أنا رسول الله إليك وإلى غيرك . يقول : انفق أنفق عليك ، ولا توك فأوك عليك . أى لا تقبض يدك عن الإنفاق فأقبض يدى عنك . وروى أبو الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما من يوم غربت فيه شمسه إلا وملكان يناديان ، اللهم أعط منفقاً خلفاً وممسكاً تلفاً) ، والسخاء والجود والكرم والإيثار ، ألفاظ بعضها من بعض ومعناها واحد ، فالسخاء هو الجود ، والكرم هو السخاء والإيثار . وقيل : إن معانيها مختلفة ، فمن أعطى البعض وأمسك البعض فهو صاحب سخاء ، ومن بذل الأكثر فهو صاحب جود ، ومن أعطى غيره ماعنده

وبقى هو يقاسى الفاقة فهو صاحب إيثار ، وأيًّا ما كان فالسخاء ، أن يبذل المرء مما أعطاه الله ليسد به حاجة محتاج ، ويحفظ به نفساً من السقوط فى المذلة والهوان — دون تفريط أو إفراط — فالإسراف مذموم ، والتقتير مذموم ، وخير الأمور الوسط ، قال الله تعالى : « وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً » وقال سبحانه « إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورا » .

وأفضل السخاء ، سخاء المرء عما فى يد غيره . قال بعض البلغاء : السخاء أن تكون بمالك متبرعاً ، وعن مال غيرك متورعاً . وكتب كسرى إلى ابنه يقول : يا بُنيَّ استقل الكثير مما تعطى ، واستكثر القليل مما تأخذ ، فإن قرة عيون الكرام فى الإعطاء ، وسرور اللئام فى الأخذ . وخير السخاء ما بذله المرء لغيره من غير سؤال . قال بعض الحكماء : أجلُّ النوال ما وصل قبل السؤال . وأنشدوا :

وفتى خلا من ماله ومن المروءة غير خال
أعطاك قبل سؤاله فكفاك مكروه السؤال

أما البذل بعد السؤال فيقول فيه الإمام على كرم الله وجهه : إنه ليس من السخاء ولكنه حياء وتكرم .

والبذل والسخاء سواء كان قبل سؤاله أو معه ، مجلبة لحب الناس

وسبيل لرضاء الله تعالى ، فقد جُبلت القلوب على حُب من أحسن إليها ، وبغض من أساء إليها ، ولا شيء أفعل فى القلوب كالسخاء ؛ ولا أبقى للذكر من العطاء ، ولا أحفظ للعرض من الكرم والجود ، فالجود حارس الأعراض ، ومخلد المفاخر للأبناء والأحفاد . وقد ظلمك من كلفك إجلاله ومنعك ماله .

وما ضاع مال ورّث الحمد أهله ولكن أموال البخيل تضيع

وإنى أسرد لك طرفاً مما رُوِىَ عن الأسخياء ، فيه متعة للنفس وبهجة للروح وسرور للقلب ونعيم للفؤاد .

وأكرم الكرماء وأجواد الأجواد وأسخى الأسخاء من قيل فيه : (فلرسول الله أجود بالخير من الريح المرسلة) ، فقد كان صلى الله عليه وسلم أجود الناس وأكرمهم على الإطلاق ، فلم يَدّخر درهماً ولا ديناراً ولا مالا ولا عقاراً . وكان ينفق على عباد الله الفقراء كل ما تصل إليه يده ؛ بل كان يأتيه المحتاج وليس عنده ما يعطيه له فيقول له : استدنْ علىّ . وكان يقول : أنا أَوْلَىٰ بالمؤمنين من أنفسهم ؛ من كان له مال فلأهله ، ومن كان له أولاد فإلىّ وعلىّ . ومن أراد أن يعرف كيف كان سخاء النبىّ صلى الله عليه وسلم فليراجع سيرته الطاهرة فسيجد أن حياته كلها سخاء ، وكلها برٌّ وجود وقد كان يعطى عطاء من لايخاف الفقر . وقد أثر سخاؤه صلوات الله وسلامه عليه فى كل من اتصل به فهاهى زوجه الطاهرة عائشة الصديقة أرسل إليها معاوية بمال فى غرارتين

قيمته ثمانون ومائة ألف درهم ، فدعت بطبق ، فجعلت تقسمه بين الناس ، فلما أمست قالت ياجارية : هلمى فطورى ، فجاءتها بخبز وزيت فقالت لها أم دُرَّة ما استطعت فيما قسمت اليوم أن تشترى لنا بدرهم لحماً نفطر عليه ؟ فقالت لو كنت ذَكَّرْتينى لفعلت .

وقال مصعب بن الزبير : حَجَّ معاوية ، فلما انصرف مَرَّ بالمدينة ، فقال الحسين بن على لأخيه الحسن : لاتلقه ولا تسلم عليه ، فلما خرج معاوية قال الحسن : إن علينا ديناً فلابد لنا من إتيانه ، فركب فى أثره ولحقه فسلم عليه وأخبره بدينه ، فمروا عليه بحمل عليه ثمانون ألف دينار فقال معاوية اصرفوه بما عليه إلى أبى محمد . وأكرم العرب فى الإسلام طلحة بن عبيد الله ، جاء إليه رجل فسأله بِرَحِم بينه و بينه ، فقال له : هذا حائطى[1] بمكان كذا وكذا ، وقد أعطيت فيه مائة ألف درهم يراح (يجاء) إلىَّ بالمال العشية ، فإن شئت فالمال و إن شئت فالحائط وقال زياد بن جرير : رأيت طلحة بن عبيدالله فرّق مائة ألف فى مجلس و إنه ليخيط إزاره بيده . وقدم رجل من قريش من سفر فمرّ على رجل من الأعراب على قارعة الطريق ؛ قد أقعده الدهر وأضرّ به المرض ، فقال له ؛ يا هذا أَعِنَّا على الدهر ، فقال لغلامه ما بقى معك من النفقة فادفعه إليه ، فصبَّ فى حجره أربعة آلاف درهم ، فهَمَّ ليقوم فلم يقدر

---

(١) أرضى

من الضعف فبكى ، فقال له الرجل : ما يبكيك لعلك استقللت مادفعناه إليك ؟ فقال لا والله : ولكنى ذكرت ما تأكل الأرض من كرمك فأبكانى . ولما مات معاوية رحمه الله وَفَدَ عبد الله بن جعفر على ابنه يزيد فقال : كم كان أمير المؤمنين معاوية يعطيك ؟ فقال : كان رحمه الله يعطينى ألف ألف ، قال يزيد قد زدناك لترحمك عليه ألف ألف ، فقال بأبى أنت وأمى ، فقال ولهذه ألف ألف ، فقال أما إنى لا أقولها لأحد بعدك ، فقيل ليزيد أعطيت هذا المال كله من مال المسلمين لرجل واحد فقال والله ما أعطيته إلا لجميع أهل المدينة ، ثم وكل به يزيد من صحبه وهو لا يعلم لينظر ماذا يفعل . فلما وصل المدينة فرّق جميع المال حتى احتاج بعد شهر إلى الدين .

واشترى عبد الله بن عامر من خالد بن عقبة داره التى فى السوق بتسعين ألف درهم ، فلما كان الليل سمع بكاء أهل خالد ، فقال لأهله : ما لهؤلاء ؟ قالوا يبكون لدراهم ، فقال يا غلام ائتهم فأعلمهم أن المال والدار لهم جميعاً .

وروى أن الشافعى رحمه الله لما مَرِضَ مَرَضَ موته بمصر قال مروا فلانا يغسلنى ، فلما توفى بلغه خبر وفاته فحضر وقال ائتونى بتذكرته فأتى بها فنظر فيها ، فإذا على الشافعي سبعون ألف درهم دَيْنٌ فكتبها على نفسه وقضاها عنه وقال هذا غسلى إياه .

ويروى أن معن بن زائدة حضر بابه شاعر فأقام مدة وأراد الدخول

على معن فلم يتهيأ له فقال يوماً لبعض خُدَّام معن إذا دخل الأمير البستان فعرِّفنى ، فلما دخل الأمير البستان أعلمه ، فكتب الشاعر بيتاً على خشبة وألقاها فى الماء الذى يدخل البستان ، وكان معن على رأس الماء ، فلما بصر بالخشبة أخذها وقرأها فإذا مكتوب فيها :

أياجود معنٍ ناج معناً بحاجتى ... فما لى إلى معنٍ سواك شفيع

فقال : مَنْ صاحب هذه ؟ فدعى الرجل ، فقال له : كيف قلت ؟ فقال البيت ، فأمر له بعشر بدر — ذهب — فأخذها ووضع الأمير الخشبة تحت بساطه . فلما كان اليوم الثانى أخرجها من تحت البساط وقرأها ودعا بالرجل فدفع إليه مائة ألف درهم ، فلما أخذها الرجل تفكر وخاف أن يأخذ منه ما أعطاه فخرج ، فلما كان فى اليوم الثالث قرأ ما فيها ودعا بالرجل فطلب فلم يوجد ، فقال معن : حق علىّ أن أعطيه حتى لايبقى فى بيت مالى درهم ولا دينار .

وخرج عبد الله بن عامر من المسجد يريد منزله وهو وحده ، فقام إليه غلام من ثقيف فمشى إلى جانبه فقال له عبد الله : ألك حاجة ياغلام قال : صلاحك وفلاحك ، رأيتك تمشى وحدك ، فقلت أقيك بنفسى وأعوذ بالله إن كان بجنابك مكروه ، فأخذ عبد الله بيده ومشى معه إلى المنزل ثم دعا بألف دينار فدفعها إلى الغلام وقال استنفق هذه فنعم ما أدَّبك أهلك ! .

وخرج عبد الله بن جعفر رحمه الله يوماً إلى ضيعة له فنزل على حائط

به نخيل لقوم وفيه غلام أسود يقوم عليه ، فأتى بقوته ثلاثة أقراص فدخل كلب فدنا من الغلام فرمى إليه بقرص فأكله ، ثم رمى اليه بالثانى والثالث فأكلهما وعبد الله ينظر إليه ، فقال ياغلام : كم قوتك كل يوم ؟ قال مارأيت . قال : فلِمَ آثرت هذا الكلب . قال : أرضنا ماهى بأرض كلاب وإنه جاء من مسافة بعيدة جائعاً فكرهت أن أَرُدَّهُ . قال فما أنت صانع اليوم ؟ قال أطوى يومى هذا فقال عبدالله : أَلامُ على السخاء وإن هذا لأسخى منى ، فاشترى الحائط وما فيه من النخيل والآلات واشترى الغلام ثم أعتقه ووهبه الحائط بما فيه . فقال الغلام إن كان ذلك لى فهو فى سبيل الله تعالى ، ودخل طلحة بن عبدالله السوق يوماً فوافق فيه الفرزدق . فقال يا أبا فراس اختر عشراً من الإبل ففعل فقال ضم إليها مثلها ، فلم يزل يقول مثل ذلك حتى بلغت مائة ، فقال هى لك . فقال الفرزدق :

يأطلح أنت أخو الندى وعقيده ... إن الندى ما مات طلحة ماتا

إن الندى ألقى إليك رحاله ... فبحيث بت من المنازل باتا

وقدم زياد الأعجم على عبد الله بن الحشرج بنيسابور فأكرمه وأنعم عليه وبعث إليه بألف دينار فقال :

إن السماحة والمروءة والندى ... فى قبة ضربت على ابن الحشرج

ومن أحسن ما يروى أن شاعراً قصد خالد بن يزيد وأنشده شعراً قال فيه :

سألت الندى والجود حرّان أنتما فقالا يقيناً إننا لعبيد
فقلت ومن مولاكما فتطاولا إليّ وقالا خالد ويزيد

فقال ياغلام اعطه مائة ألف درهم وقل له إن زدتنا زدناك فأنشد يقول :

كريم كريم الأمهات مهذب تدفق يمناه الندى وشمائله
هو البحر من أيّ الجهات أتيته فلجته المعروف والجود ساحله
جواد بسيط الكف حتى لو أنه دعاها لقبض لم تجبه أنامله

ولو ذهبت أحصى لك أخبار الكرام لما وسعنى هذا الكتاب ولم يبق من الكرم إلا ذكر الأسخياء تعطر به المجالس ، وتحسن به المؤانسة ، والسخاء ذخيرة الرجل لأولاده بعد موته ، به يكرمون ، و بسببه ينالون جميل العطف ، ويدفع عنهم كثيراً من نوائب الدهر .

يروى أن النبى صلى الله عليه وسلم بعث علياً كرم الله وجهه إلى طىء فهرب عديّ بأهله وولده ولحق بالشام ، وترك أخته سفانة ، فأسرها المسلمون ، فلما أوتى بها إلى النبى صلى الله عليه وسلم قالت : هلك الوالد ، وغاب الرافد ، فإن رأيت أن تخلى عنى ولا تشمت بى أحياء العرب ، فإن أبى كان سيد قومه ، يفك العانى ، و يقتل الجانى ، و يحفظ الجار ، و يحمى الذمار ، و يفرج عن المكروب ، و يطعم الطعام و يفشى السلام ، وما أتاه طالب حاجة فردّه خائباً ، أنا بنت حاتم الطائى .

فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم ياجارية هذه صفات المؤمنين . ثم قال : خلوا عنها فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق .

ولعلك بعد الذى قرأته تعجب من فعل هؤلاء الأماجد الأسخياء ، ولعلك تحسب أن فيما قدموه وبذلوه من أموالهم إسرافاً وتبذيراً . فيحسن بك إن كنت ممن أفاء الله عليهم بالخيرات الكثيرة ، والأرزاق الوفيرة ، أن تتشبه بالكرام ، فإن التشبه بهم فلاح فى الدنيا والآخرة ، وقديماً قالوا : لا سرف فى الخير ، فما دمت تريد سدّ حاجة ، أو إغاثة ملهوف ، أو تفريج كربة مكروب ، فأكثر البذل والعطاء :

فالناس كلهم عيال اللّـــه تحت ظلاله

وأحبهم طرًّا إليـه أبرُّهم بعيـاله

ولأن يقال مبذر فى الخير أولى من أن يقال شحيح بخيل ، نعم ، الاعتدال مطلوب فى كل شىء ، والجود من الموجود و « لا يُكلِّفُ اللهُ نفساً إلا وُسْعَها » . « لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتاه اللهُ لَا يُكلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا » .

والحمد لله ما زال المسلمون بخير ، ففيهم من تسخو نفسه بعشرات الآلاف ومئاتها فى سبيل المنافع العامة التى تعود عليهم وعلى أمتهم بالخير والإسعاد ، من إقامة المستشفيات ، ودور العلم ، وأماكن العبادة .

وتكملة لهذا الموضوع العظيم أذكر لك فضل :

إغاثة الملهوف

اصطناع المعروف وقضاء حوائج الناس وتفريج كربهم وسدّ خلّتهم والبرّ باليتيم ، والإحسان إلى الفقير ، ومعاونة المحتاج ، وإطعام الجائع ، وكسوة العارى ، والتجاوز عن المعسر . كل ذلك دليل على علو الهمة ، ونبل العاطفة ، ورقة القلب ، وقوة الإيمان ، وحسن الإسلام ، فخير الناس أنفعهم للناس . وهؤلاء الخيّرون خلقهم الله لقضاء حوائج العباد ، وآلى الله — حلف — على نفسه ألّا يعذبهم بالنار ، فإذا كان يوم القيامة وُضعت لهم منابر من نور يحدثون الله تعالى والناس فى الحساب . هكذا ورد فى بعض الآثار . والملهوف هو الحائر فى حاجته ، العاجز عن القيام بها ، وهو قريب الشبه بالمضطر ؛ يتلهف من جانب إلى جانب ومن وجه إلى وجه ، متحير فى نفسه لا يعرف من أين يأتى الفرج له ؛ كمثل رجل عليه دَيْنٌ وقد حان وقته وليس عنده ما يسدّد به وصاحب الدَّيْن لا يؤخره ولا يعذره ، فهو من حاله فى عناء ، ومن همومه فى شقاء ، نومه اضطراب ، ويقظته عذاب ، وكامرأة مات زوجها وخلف لها أطفالا ولم يترك لهم ما يسد خلتهم ويدفع عنهم عوادى الأيام ، فإذا جاعوا وطلبوا الطعام ولم تجده تلهفت على من ينقذ صغارها ، فهى حائرة مضطربة لا يقر لها قرار ولا يهنأ لها بال .

إذا عرفت هذا فاعلم أن ثواب من أغاث ملهوفا لا يقدر بمقدار ؛

ولا يكال بمكيال، وإنما يقدره ويعلم حقيقته الكبير المتعال . وقصة من أغاث حيواناً تبيّن ثواب من أغاث إنساناً ، ففى البخارى ومسلم أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « بينما رجل يمشى بطريق اشتد عليه العطش فوجد بئراً فنزل فيها فشرب ثم خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرى (١) من العطش . فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى كان قد بلغ منى ، فنزل البئر فملأ خُفّه (حذاءه) ماء ثم أمسكه بفيه حتى رَقِى فسقى الكلب ، فشكر الله له فغفر له ، قالوا يارسول الله إن لنا فى البهائم أجراً ؟ فقال فى كل كبد رطبة أجر .

بل إن هذا الحديث روى من وجه ، يدفع على إغاثة الملهوف ويحثّ على تفريج الكرب ، ويرقّق القلوب بعبارات تسيل عطفاً وحُنُوًّا ، ففى رواية للبخارى ومسلم أيضا عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « بينما كلب يطيف — يدور — بركية — بئر — قد كاد يقتله العطش إذ رأته بغىّ (زانية) من بغايا بنى إسرائيل فنزعت موقها (خفها) فاستقت له به فَسَقَتْه فَغُفِرَ لها به » .

فتأمل كيف غفر الله لبغىّ لإغاثتها حيوانا ملهوفا ، فما يكون ثواب من ينقذ إنساناً من لهفته ، ويجبر كسرته ، ويفرّج كُربته . وما أروع قول النبى صلى الله عليه وسلم فى الحديث الذى رواه مسلم « مَنْ نَفَّسَ

---

(١) التراب المبتل بالماء .

عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا نَفَّسَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسَّرَ اللهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَادَامَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ » .

فإذا رأيت مكروبا ، أو سمعت عن ملهوف فبادر بمعونته قبل أن تطير النعمة من بين يديك ، فإن لله على أقوام نعما يقرها عندهم مادامو! فى حوائج الناس ، فإذا مَلُّوا قضاء حوائج الناس نقلها الله إلى غيرهم . ويروى عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قيل يارسول الله ! أىّ الناس أحب إليك ؟ قال أنفع الناس للناس ، فقيل يارسول الله فأىّ الأعمال أفضل ؟ قال إدخال السرور على المؤمن . قيل وما سرور المؤمن ؟ قال إشباع جوعته وتنفيس كُرْبته وقضاء دينه .

وروى الطبرانى عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من أدخل على أهل بيت من المسلمين سروراً لم يرض الله له سروراً دون الجنة .

فالسعادة كل السعادة ، والفلاح والفوز فى إغاثة الملهوف ، والتيسير على المعسر فمن وفّقه الله لفعل ذلك ، وجعله موضع حوائج الناس ، فقد أراد به عزّ الدنيا وسعادة الآخرة . ومن عجز عن إغاثة الملهوف بماله ، فليرشده إلى الطريق الذى لو سلكه زالت لهفته ، وتيسرت أموره ، والدال على الخير كفاعله ، وإليك أروع قصة تروى فى إغاثة الملهوف تحت عنوان .

قصر فى الجنة

الدهر تصاريفه عجب ، وتقلب أحوال أهله يدعو إلى الاعتبار والعظة ، فهذا صحيح وغداً سقيم ، وذاك ذليل وغداً عزيز ، والعاقبة الحسنى لمن عرف أن الدنيا لا تدوم على حال ، فاغتنم الصحة لمساعدة الضعفاء ، وانتهز فرصة الغنى فبذل ماله لإسعاد المحتاجين ، وإغاثة المكروبين ، والقصة التى أرويها لك فيها من الروعة والجلال مايحثك على البرّ ويرغبك فى فعل الخير . وتفصيلها أن رجلا كان فى حياته يعمل جاهداً فى جلب قوته وقوت أهله ، فلما مات لم تجد زوجته فى الجهة التى هى فيها من يعطف عليها وعلى بناتها ، فرحلت إلى بلد آخر ومعها بناتها وآوتهم فى مكان خرب وتوجهت تلتمس فرجاً لحالتها ، فوجدت رجلا عليه سيماء الصلاح وفى يده مسبحة طويلة ، فتقدمت إليه وشرحت حالها وحال بناتها ، وطلبت منه معونة تسد بها حاجة هؤلاء الصغار ، وكان منظرها يدل على شدة الفاقة ، فجسمها نحيل وطرفها كليل ، وفؤادها مضطرب ، مرآها وهى تشرح حالها يزرع الرأفة فى القلب ، ولكن صاحبها التى ظنت فيه الخير ، خيّب رجاءها ، وزاد بلاءها ، فقد قال لها : إن الناس يكذبون حين يصفون حالهم ، فأنا أريد أن تحضرى لى شاهداً يشهد على صحة ماتقولين ، فقالت : ومن أين آتى به ؟ ولا معرفة لى بأحد من أهل هذه البلاد ، فأبى أن يعينها إلا إن أحضرت شاهداً

يشهد أمامه بحالها ، فولّتْ وهى تبكى فرآها رجل نصرانىٌّ كتب الله له السعادة بسبب هذه المرأة ، فسألها عن سبب بكائها ، فشرحت له حالها وحال بناتها ، فطيّب خاطرها وذهب معها إلى بناتها وتوجّه بهم جميعاً إلى منزله ، وقال لها يا أمة الله أنت و بناتك هنا كأولادى تأكلن مما نأكل ، وتلبسن مما نلبس ، فكلنا يعيش من فضل الله والله ذو الفضل العظيم ، فدعت له بعزّ الدنيا وسعادة يوم القيامة . وفى الليلة الأولى نام صاحب المسبحة الطويلة التى طلب منها شاهداً يشهد بصحة ما تقول ، فرأى أن القيامة قد قامت وعرض الناس على الحساب ورأى قصراً فى الجنة يرى ظاهره من باطنه و باطنه من ظاهره ، ورأى النبىّ صلى الله عليه وسلم يجلس أمام هذا القصر ، فجاء إليه وسلم عليه وقال يارسول الله لمن هذا القصر ؟ فقال لرجل مؤمن ، فقال أنا مؤمن يارسول الله ، فقال فمن يشهد لك بهذا ؟ فقال ومن أين آتى اليوم بمن يشهد لى فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : ومن أين كانت المرأة تأتيك بشاهد ، فقام من نومه مذعوراً وأخذ يبحث عن المرأة و بناتها . ولما علم بوجودها عند الرجل النصرانى ذهب إليه وطلبها منه وقال إننى رجل مسلم والمرأة مسلمة ، ولا يصح أن يؤويها مثلك لايدين بالإسلام ، فأنا أولَى الناس بها ، ولابد من أخذها و بناتها إلى بيتى ، ليكون الجميع من أولادى ، فقال له الرجل النصرانى : يا هذا ! إن القصر الذى رأيته هو لى وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله . فرجع الرجل مخذولا .

محسورا وندم على ماحدث منه وتاب إلى الله وأناب وأنفق الكثير من ماله فى حاجة المحاويج لعل الله أن يمنَّ عليه بالقبول و يتجاوزعن تقصيره .

ومن ألطف مايروى فى قضاء الحاجات وكشف الكربات ماحكاه أبو بكرة عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن أعرابياً أتاه فقال :

ياعمر الخير جزيت الجنة اكس بناتى وأمهنَّه
وكن لنا من الزمان جُنَّه أقسم بالله لتفعلنَّه

فقال عمر رضى الله عنه : فإن لم أفعل يكون ماذا ؟ فقال :

إذن أبا حفص لأذهبنَّه :

فقال : فإذا ذهبت يكون ماذا ؟ فقال :

يكون عن حالى لتسألنه يوم تكون الأعطيات هنّه
وموقف المسئول بينهنّه إما إلى نار وإما جنَّه

فبكى عمر رضى الله عنه حتى ابتلَّت لحيته ، ثم قال : يا غلام أعطه قميصى هذا لذلك اليوم لا لشعره ، أما والله لا أملك غيره . !

فانظر إلى عمر وهو لايملك غير قميصه . يعطيه لمحتاج خوفاً من الوقوف بين يدى الله تعالى يسأل عن إهمال هذا الرجل المحتاج وعدم سدّ خلته ، و يستقل ما أعطاه فيحلف بالله أنه لايملك غير القميص ، ولا تظن أن قميص عمر كقميصك ، فالرجل الذى مُنِح هذا القميص يعلم أنه سيكون سبباً لغناه ، ويكفيه ليحصل على مايريد أن ينادى فى السوق : هذا قميص عمر ، فمن السعيد الذى يشتريه .

فهم المسلمون الأوائل — والسلف الصالح — أن أبرّ الأعمال وأفضل الخلال ، وأشرف الخصال . إعانة المحتاج ، وقضاء حوائج الناس وإغاثة الملهوف . فاندفعوا يبذلون أموالهم سخيةً بالبذل نفوسهم ، منشرحة به صدورهم ، قدوتهم فى ذلك خير الأنبياء ، وإمام الأتقياء ، وسيد الأسخياء سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، فرفّهوا عن المساكين ، وقضوْا حوائج المحتاجين ، فى غير ضجَرٍ من سائل ، أو إذلال لمحتاج . قصد أبو بكر بن دريد بعض الوزراء فى حاجة فلم يقضها له وظهر له منه تبرم واستثقال وضجر فقال :

لا تدخلنك ضجرةٌ من سائل فلخير دهرك أن ترى مسئولا
لا تجبهنْ بالردّ وجه مؤمل فبقاء عزّك أن ترى مأمولا
تلقى الكريم فتستدل ببشره وترى العبوس على اللئيم دليلا
واعلم بأنك عن قليل صائر خبراً فكن خبرا يروق جميلا

فخير ما يكسب المرء فى الدنيا الثناء ، وفى الآخرة الخلود فى دار النعيم ، أن يعود نفسه تفريج كُرب المكروبين ، وإطعام الجائعين ، وقضاء دين من يعجز عن سداد دينه من إخوانه المؤمنين ، وأن يكون ظلا يستظل الفقراء والضعفاء به فى حياتهم ، فهو أب اليتيم ، وراعى الأرمل ، ومنقذ البائس ، لا يبالى كثُر مالُه أو قل ، ما دام ذلك فى رضاء الله ، لا يرد سائلا ، ولا يمنع محروماً .

ويطربنى ما أنشده الأصمعى عن الكسائى :

كأنك فى الكتاب وجدت لاءً محرّمة عليك فلا تحلّ
فما تدرى إذا أعطيت مالاً أيكثر من سماحك أم يقلّ
إذا حضر الشتاء فأنت شمس وإن حضر المصيف فأنت ظلّ

إن اصطناع المعروف لا يضاهيه شىء من الأعمال . سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم — أى الإسلام خير — قال : (تطعم الطعام ، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف) وقال صلوات الله وسلامه عليه : (من كسا مسلماً ثوباً على عرى كساه الله من خضر الجنة . ومن أطعم مسلماً على جوع أطعمه الله من ثمار الجنة . ومن سقى مسلماً على ظمأ سقاه الله من الرحيق المختوم) ومن أروع ما قرأت قصة تحت عنوان :

دعوة مستجابة

فى بعض كتب الأدب أن رجلا من العلماء ، علم برجل صالح مجاب الدعوة عند الله فى بلدة من البلاد فقصده ، وتظاهر بأنه ضيف ، فأضافه الرجل الصالح وأقام عنده ثلاث ليال وهو يرقب عبادته وتهجده ، فلم ير شيئاً غريباً من طاعة أو عبادة ، فسأله عن سبب إجابة دعائه ؟ فقال يا هذا : تلك دعوة نفس عضها الجوع ، وصدقت لله فى السجود والركوع ، فأجاب دعاها ، وأعطاها مناها ، قال فكيف ذلك ؟ فحدثه أنه حصل فى البلد قحط فى عام من الأعوام ، وفى ليلة قرع الباب قارع فخرجت وإذا شابة جميلة تخجل البدر والقمر ، وتبدو كأنها الشمس فى

وسط النهار ، فشكت إلىّ جوعها ، فحادثتها ثم راودتها عن نفسها ، فقالت : الموت ولا معصية ربى ، ثم رجعت من حيث أتت ، و بعد أيام عادت وتوسلت إلىّ فقلت كما قلت أولا ، فبكت ثم دخلت البيت وقد أشرفت على الهلاك ، ثم قالت تطعمنى لوجه الله . قلت لا : إلا أن تمكنينى من نفسك . فقالت الموت خير من عذاب الله . فسرت خلفها فسمعتها تقول :

أيا واحداً إحسانه شمل الخلقا بسمعك ما أشكو بعينك ما ألْقى
لقد صدمتنى شدة وخصاصة ونازلنى ما بعضه يمنع النطقا
كأنى ظمآن ترى الماء عينه فلا غلة تروى ولا شربة تسقى
تنازعنى نفسى إلى نيل أكلة لذاذتها تفنى وغصتها تبقى
أأعصيك بعد الفضل والجود والهدى
وكيف وبالطاعات استجلب الرزقا
سأتلفها فى نيل حبك سيدى عساى بها استوجب القرب والعتقا

فجزعت لما سمعت ثم دخل قلبى الإيمان بالله وحب الخير فقلت لها عودى وكلى وخذى من المال ما شئت لله . فعادت وهى فى حالة ضعف لا تكاد يسمع لها صوت . فلما علمت صدق ورأتنى قدمت لها الطعام وعرضت عليها ما شاءت من متاع الدنيا . قالت : اللهم كما أَنْرَت قلبه وهديت لبَّه فأجب دعاءه ولا ترده خائبا فكان ما دعت به ثم تزوجتها وصارت لى زوجة والحمد لله .

وإذا كنا قد تحدثنا عن واجب من بسط الله لهم الرزق نحو إخوانهم المحاويج فعلينا أن نوجه كلمة نصح إلى الفقراء والمعوزين . ونبدأ الكلام بقول النبي الكريم صلى الله عليه وسلم — اليد العليا خير من اليد السفلى واليد العليا هى المعطية واليد السفلى هى الآخذة .

والإسلام يحب من المؤمنين علو الهمة والكرامة . ويكره منهم حياة الذل والمهانة ، فالمؤمن شريف النفس لا يذل إلا لخالقه ولا يعتمد إلا على مولاه ورازقه شعاره فى الحياة ، كل من كدّ يمينك وعرق جبينك . فإن عجزت فالمولى يعينك . يرى سؤال الناس موتا دونه الموت ، وعذابا دونه العذاب قال . بزرجمهر . إن كان شيء فوق الحياة فالصحة ، وإن كان شيء مثلها فالغنى . وإن كان شيء فوق الموت فالمرض وإن كان شيء مثله فالفقر . وقالوا القبر خير من الفقر . ووجد فى نيل مصر مكتوبا على حجر .

عقبى الصبر نجاح وغنى ورداء الفقر من نسج الكسل

فواجب المؤمن أن يضرب فى مناكب الأرض ليعف نفسه عن سؤال الناس فيعيش بينهم عزيزاً كريما . فإنه لاشيء أصعب على نفس الكريم وأشق على مرارته من سؤال العباد أعطوه أو منعوه قال الأفوه :

وذقت مرارة الأشياء جمعا فما طعم أمر من السؤال

وقال غيره :

وليست أيادى الناس عندى غنيمة ورب يد عندى أشد من الأسر

وقال الآخر :

لا تطلبن معيشة بتذلل فليأتينك رزقك المقـدور
واعلم بأنك آخذ كل الذى لك فى الكتاب مقدّر مسطور

فمن العار على من أعزه الله بالإيمان — أن يقعد عن الكسب . انتظاراً لإحسان المحسنين . وفى الحديث يقول رسول الله صلّى الله عليه وسلم (إن الله تعالى يبغض العبد الصحيح الفارغ) ويقول — إن الله يحب العبد المحترف — صاحب الحرفة — ويقول فى حديث آخر — (من اكتسب قوته ولم يسأل الناس لم يعذبه الله تعالى يوم القيامة ولو تعلمون ما أعلم من المسألة . لما سأل رجل رجلا شيئاً وهو يجد قوت يومه ، وليس عند الله أحب من عبد يأكل من كسب يده) وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : لا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق ويقول : اللهم ارزقنى فقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة . وقال أيضاً إنى لأرى الرجل فيعجبنى فأقول أله حرفة — صنعة — فإن قالوا لا سقط من عينى — وورد فى تفسير قول الله تعالى : « وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ » — أى دروع من الحديد — وذلك أن داود عليه السلام كان يدور فى الصحارى فإذا رأى من لا يعرف تحدث معه فى أمر داود . فإذا سمعه عابه بشىء يصلحه من نفسه . فسمع يوما من يقول : إنى لا أجد فى داود عيباً إلا أنه يأكل من غير كسبه فعند ذلك صلى داود عليه السلام فى محرابه وتضرع بين يدى الله وسأله أن يعلمه

ما يستعين به على قوته ، فعلّمه الله تعالى صنعة الحديد وجعله فى يده كالشمع فاحترف صناعة الدروع واستعان بها على أمره — وفى هذا يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما أكل أحد قط طعاما أفضل من أن يأكل من عمل يده وإن نبى الله داود كان يأكل من عمل يده » .

فمن جدّ فى الحياة عاش عزيزا، ومن انتظر فضلات الناس وصدقاتهم عاش فى الحياة لئيما ، وإذا رزق المرء حب العمل ومنح نعمة القناعة فهو الغنى العظيم قال شاعر :

ذرينى للغنى أسعَى فإنى ... رأيتُ الناس شرّهم الفقير
وأهونهم وأحقرهم لديهم ... وإن أمسى له نسبٌ وخير
ويقصى فى الندىّ وتزدريه ... حليلته وينهـــره الصغير
ويلقى ذو الغنى وله جلال ... يكادُ فؤادُ صاحبـــه يطير
قليـلٌ ذنبُه والذنب جَمٌّ ... ولـكن للغنى ربٌّ غفور

فالدنيا جهاد وجلاد والرجل كل الرجل هو الذى يناضل الحياة ويتغلّب بجده على متاعبها و بذلل مصاعبها بالصبر والـكفاح فزينة الرجل العمل ، وعزّه فى الغنى عن سؤال الناس .

وشقاء المرء فى الـكسل ، وموت نفسه فى إذلالها وهوانها بطلب ما فى أيدى العباد .

لا تحسبنّ الموتَ موت البلى ... فإنما الموتُ سؤالُ الرجال
كلاهما موتٌ ولـكنَّ ذا ... أشد من ذاك لذل السؤال

فكن فى نفسك عظيما وروّضها على القناعة ، وأكرمها بالسعى لما يجلب السعادة ، وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس .

دخل عمر بن سعد على عمر بن الخطاب حين رجع إليه من عمل حمص وليس معه إلا جراب وإداوة وقصعة وعصاة : فقال له عمر ، ما الذى أرى بك من سوء الحال ؟ أم تصنع : قال وما الذى ترانى ، أولست ترانى صحيح البدن معى الدنيا بحذافيرها ، قال : وما معك من الدنيا ، قال : معى جرابى أحمل فيه زادى ومعى قصعتى أغسل فيها ثوبى ، ومعى إداوتى أحمل فيها مائى لشرابى ، ومعى عصاى ، إن لقيت عدوا قاتلته ، وإن لقيت حية قتلتها ، وما بقى من الدنيا تبع لما فيها .

وأن هذا الرجل العظيم يتمثل بقول الإمام على كرم الله وجهه

أفادتنى القناعة كل عز وأىّ غنى أعز من القناعة
فصيرها لنفسك رأس مال وصير بعدها التقوى بضاعة

وقد قالوا فى الحكم ، الرضا بالكفاف يؤدى إلى العفاف ، وقالوا إذا طلبت العز فأطلبه بالطاعة ، وإذا طلبت الغنى فأطلبه بالقناعة ، فمن أطاع الله عز وجل عز نصره ، ومن لزم القناعة زال فقره .

وقد يكون السؤال اضطرارا ، فمن نزلت به محنة ألجأته إليه أو كان عاجزا عن السعى فى الأرض ليدفع الفاقة عن نفسه .

فليسأل فى غير الحاح — أهل الكرم والجود الذين تعودوا بسط الكف للمحتاج ، ويصون ماء وجهه عن سؤال اللئام .

فقد روى الحاكم فى المستدرك عن على بن أبى طالب رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : (اطلبوا المعروف من رحماء أمتى تعيشوا فى أكنافهم ، ولا تطلبوه من القاسية قلوبهم ، فإن اللعنة تنزل عليهم : يا على إن الله تعالى خلق المعروف وخلق له أهلا فحبّبَهُ إليهم ، وحبَّبَ إليهم فعالَه ووجّه إليهم طلابه ، كما وجّه الماء فى الأرض الجدْبة لتحيا به ويحيا به أهلها ، كما أن أهل المعروف فى الدنيا هم أهل المعروف فى الآخرة) .

ويدخل فى باب اصطناع المعروف :

صلة الأرحام

أرحام الإنسان أهله وعشيرته . إن احتاج إلى الأعوان وجدهم أعوانه ، وإن اضطر إلى الأنصار فهم أنصاره . إن عزّوا فهو بهم عزيز . وإن هانوا ، لحقه الهوان ، فالقريب قطعة من قريبه يفرح لفرحه ويحزن لمصابه ، لذلك جعل الله تعالى قطيعة الرحم من الإفساد فى الأرض فقال سبحانه : « فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ » . وقرن صلة الأرحام بالأمر بتقواه فقال عز شأنه : « واتَّقُوا اللهَ الذِى تَسْأَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ » . وروى البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(إن الله تعالى خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم — القرابة — فقالت : هذا مقام العائذ بك من القطيعة . قال : نعم : أما ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك . قالت : بلى — أى رضيت — قال : فذلك لك) . ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اقرؤا إن شئتم . « فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ » . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لا يدخل الجنة قاطع) . قال سفيان فى روايته : يعنى قاطع رحم . إن صلة الأرحام والإحسان إليهم يزيد فى الرزق ويبارك فى العمر فعن أنس رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (من أحب أن يبسط له فى رزقه وينسأ له فى أثره فليصل رحمه) وقال بعض الحكماء : بلوا أرحامكم بالحقوق ولا تجفوها بالعقوق . وقال آخر : صلوا أرحامكم فإنها لا تبلى عليها أصولكم ، ولا تهضم عليها فروعكم .

ومن العجب أن يمتحن الله عباده بصلة الأرحام فيأمر بالإحسان إليهم وقد يقابلون الإحسان بالإساءة والقرب بالبعد والمودة بالجفاء . حتى شاع على ألسنة الناس : الأقارب كالعقارب . وقال عبد الله ابن المعتز :

لحومهم لحمى وهم يأكلونه وما داهيات المرء إلا أقاربه

و إساءة الأقارب بعضهم لبعض وحسدُ بعضهم بعضا مردّه إلى خبث

الطوية . وقلة الدين وضعف الإيمان وخير الأقارب من يقابل جفاء أقاربه بالمودة . وقطعهم بالوصل وحرمانهم بالإعطاء . ويعجبنى قول محمد بن عبد الله الأزدى :

وحسبك من ذل وسوء صنيعة مناواة ذى القربى وأن قيل قاطع
ولكن أواسيه وأنسى ذنوبه لترجعه يوماً إلى الرواجع
ولا يستوى فى الحكم عبدان واصل وعبد لأرحام القرابة قاطع

ومن خير ما يذكر فى هذا الموضوع ما رواه مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رجلا قال : يا رسول الله إن لى قرابة أصلهم ويقطعوننى وأحسن إليهم ويسيئون إلى . وأحلم عليهم ويجهلون علىّ فقال : (لئن كنت كما قلت فكأنما تسفهم الملّ — الرماد الحار — ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذلك) . فالنبى صلى الله عليه وسلم بين لهذا الرجل إن فعله هذا بأقاربه ومقابلتهم إحسانه بالإساءة إليه . كأنما يطعمهم الرماد الحار من الألم ولا شىء على هذا المحسن إليهم لكن ينالهم ذنب عظيم بتقصيرهم فى حقه وإيقاعهم الأذى به .

وإذا كان هذا الذى تقدم فى صلة الأقارب . فحق الوالدين أعظم وأجل — وكيف لا — وقد قرن الله فى كتابه بر الوالدين وطاعتهما بالأمر بعبادته وتوحيده ، فإن لهما من الحقوق ما ليس لأحد عليهما إلا الله تعالى قال سبحانه : « وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا . إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا

فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا » . وإن العبارة مهما سمت ، والأساليب مهما علت ، لن تصل إلى أرق من هذه المعانى السامية التى ذكرها الله فى كتابه فى وجوب بر الأبناء بالآباء وتوقيرهم وتعظيمهم . والآيات فى ذلك كثيرة وقد جعل النبى صلى الله عليه وسلم بر الوالدين جهاداً فى سبيل الله ففى الحديث الشريف جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فاستأذنه فى الجهاد فقال : (أَحَيٌّ والدك قال : نعم . قال : ففيهما فجاهد) . وجاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتى (صحبتى) قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : أبوك . وهذا الحديث يبين أن برّ الأم آكد — لسهرها الليالى الطوال على راحته ولحملها إياه تسعة أشهر والقيام بشئونه ومتاعبها فى تربيته قال الحسن البصرى : حق الوالد أعظم وبر الوالدة ألزم .

وروى أن رجلاً قال لأحد أصحاب النبى إن لى أمًّا أنا مطيتها أقعدها على ظهرى ولا أصرف عنها وجهى وأرد إليها كسبى فهل جزيتها . قال : لا ولا بزفرة واحدة قال : ولم ؟ قال : لأنها كانت تخدمك وهى تحب حياتك وأنت تخدمها وتحب موتها . وقال على رضى الله تعالى عنه : لو علم الله شيئاً فى العقوق أدنى من أُفٍّ لحرّمه

فليعمل العاق ما شاء أن يعمل فلن يدخل الجنة . وليعمل البار ما شاء أن يعمل فلن يدخل النار — وكان رجل من العباد يقبل كل يوم قدم أمه فأبطأ يوماً على إخوته فسألوه فقال : كنت أتمرغ فى رياض الجنة . فقد بلغنا أن الجنة تحت أقدام الأمهات ، إن الكلام فى بر الوالدين يحتاج إلى سفر مستقل بل إلى أسفار فبر الوالدين دليل الإيمان تدعو إليه الفطرة ويوجبه الدين والعقل . وتحث عليه العاطفة . وما عق والديه إلا لئيم كتب عليه عذاب الدنيا وخزى الآخرة — وإنا نرى فى زماننا هذا من يسىء عنوة إلى والديه ومن يفضل زوجته وأولاده عليهما فى المعاملة . وقد يصل الحال به إلى ضربهما وطردهما من بيته وحرمانهما من بره وعطفه ومن خيره وكسبه ، ألا فليعلم ذلك الأثيم — أن أولاده سيفعلون به كما فعل بوالديه وأن السعادة والجنة محرّمة عليه — وكما تدين تدان وبالكيل الذى به تكيل تكتال — قيل لعلى بن الحسين رضى الله عنه إنك من أبر الناس بأمك ولا تأكل معها فى صحفة فقال : أخاف أن تسبق يدى يدها إلى ما تسبق عيناها إليه فأكون قد عققتها . والعقوق كبيرة من الكبائر وذنب عظيم قرنه الله تعالى بالشرك به وإن دعوة الوالدين مستجابة فاحذر أن تصيبك وقد مرّ بك أن أم جريح العابد الزاهد دعت عليه فاستجاب الله دعاها ويروى أن الزمخشرى صاحب كتاب الكشاف فى تفسير القرآن الكريم . كان يلعب فى صغره بعصفور ربط برجله حبلا . وكان كلما هم العصفور بالطيران

جذبه إليه . فنهته أمه خشية أن يقطع رجل العصفور ولكنه استمر فى تعذيب العصفور حتى قطعت رجله فلما رأت أمه ما حل بالطائر المسكين دعت على ولدها بأن يقطع رجله كما قطع رجل العصفور . ولما كبر الزمخشرى وصار عالماً يشار إليه أحب أن يسيح فى البلاد للاستزادة من العلوم والمعارف فمرّ على بلاد شديدة البرد فأصيب بمرض فى رجله وخشى الأطباء أن يمتد منها إلى القلب فقرروا قطع رجله وقطعوها فعلا .

وروى عن جابر قال ، جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله إن أبى أخذ مالى فقال النبى صلى الله عليه وسلم ، فاذهب فأتنى بأبيك ، فنزل جبريل عليه السلام على النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال : إن الله تعالى يقرئك السلام ، ويقول إذا جاءك الشيخ فسله — اسأله — عن شىء قاله فى نفسه ما سمعته أذناه ، فلما جاء الشيخ قال له النبى صلى الله عليه وسلم ما بال ابنك يشكوك — تريد أن تأخذ ماله — قال : سله يا رسول الله ، هل أنفقته إلا على عماته وخالاته أو على نفسى ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم إيه ، دعنا من هذا ، أخبرنى عن شىء قلته فى نفسك ما سمعته أذناك ، فقال الشيخ : والله يا رسول الله ما يزال الله تعالى يزيدنا بك يقينا ، لقد قلت فى نفسى شيئاً ما سمعته أذناى ، فقال : قل وأنا أسمع فقال : قلت :

غذوتك مولوداً وعلتك يافعا ... تعلّ بما أجنى عليك وتنهل
إذا ليلة ضاقتك بالسقم لم أبت ... لسقمك إلا ساهرا أتململ
كأنى أنا المطروق دونك بالذى ... طرقت به دونى فعينى تهمل
تخاف الردى نفسى عليك وإنها ... لتعلم أن الموت وقت مؤجل
فلما بلغت السن والغاية التى ... إليها مدى ما كنت فيه أؤمل
جعلت جزائى غظلة وفظاظة ... كأنك أنت المنعم المتفضل
فليتك إذ لم ترع حق أبوتى ... فعلت كما الجار المجاور يفعل
تراه معدًّا للخلاف كأنه ... برد على أهل الصواب موكل

قال جابر فحينئذ أخذ النبى صلى الله عليه وسلم بتلابيب ابنه ، وقال : أنت ومالك لأبيك ، وهذه الأبيات التى ذكرها ذلك الرجل تعبر عن حالة كل والد نحو ولده ومن أراد زيادة فى هذا الموضوع فليرجع إلى كتابى (غذاء الأرواح) ففيه من الطرائف ما يرقق القلوب وختاما أخرج مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : رغم أنفه ، رغم أنفه ، رغم أنفه ، قيل من يا رسول الله ؟ قال : من أدرك والديه عند الكبر أو أحدهما ثم لم يدخل الجنة أى ببرهما والإحسان إليهما .

وينبغى أن يعين الوالد ولده على بره بالعدل بين أولاده وتعليمهم وتهذيب نفوسهم ، والنصح لهم ، ومؤاخاتهم والبشر فى وجوههم والتوسعة عليهم ، غضب معاوية يوما على ابنه يزيد فهجره . فقال له

الأحنف يا أمير المؤمنين . أولادنا ثمار قلوبنا وعماد ظهورنا ونحن لهم سماء ظليلة . وأرض ذليلة ، وبهم نصول على كل جليلة ، فإن غضبوا فأرضهم . وإن سألوا فأعطهم ، وإن لم يسألوا فابتدئهم ولا تنظر إليهم شزراً فيملوا حياتك ويتمنوا وفاتك . فقال معاوية يأغلام إذا رأيت يزيد فأقرئه السلام وإحمل إليه مائتى ألف درهم ومائتى ثوب فقال يزيد من عند أمير المؤمنين ؟ فقيل له الأحنف فقال يزيد علىّ به فقال يا أبا بحر كيف كانت القصة فحكاها له فشكر صنيعه وشاطره الهبة ، فرحم الله أمرأ أعان ولده على بره . ولم يحمله على عقوقه بسوء خلقه وشره قيل لرجل أى ولدك أحب إليك . قال صغيرهم حتى يكبر ، ومريضهم حتى يبرأ وغائبهم حتى يحضر ، وإلى هنا نكتفى لنقدم لك من اصطناع المعروف .

إكرام الضيف

أردت أن أعرف بالضبط معنى كلمة ضيف ففهمت من كتب اللغة ، أن الضيف هو كل نازل عندك قريبا كان أو بعيدا غنيا كان أو فقيرا مجهودا أو غير مجهود ، ابن سبيل أولا مدعوًّا إلى وليمة أولا . فالضيف عام فى كل نازل . ويخص المسافر باسم ابن السبيل فوق أنه ضيف — وتأملت قول الله تعالى : « هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ . إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَاما . قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ »

ففهمت أن ابراهيم عليه السلام لم يكن يعرفهم ، فهل الضيف يطلق على النازل عندك إذا كنت لا تعرفه — وفى حديث ضيف رسول الله صلى الله عليه وسلم — جاءه رجل وقال إنى مجهود — جائع — فهل الضيف هو النازل عندك الملتجىء إليك من شدة ما به من الجوع — حاول أن يطمئن قلبك إلى معنى من المعانى المتقدمة فإذا رأيت كما رأيت أنا أن الضيف يطلق على الغريب غير المعروف الذى ألجأته الحاجة إليك — استطعت بسهولة أن تدرك معنى قول النبى صلى الله عليه وسلم (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه) فقد علق الإيمان بالله واليوم الآخر على إكرام الضيف — وكأن من لم يكرم الضيف مجرد من الإيمان بالله واليوم الآخر — فهل إذا زار صديق صديقه أو دخل منزلك رجل معروف وغير محتاج . ولم تقم بإكرامه كنت غير مؤمن — لا أظن ذلك ، والذى أميل إليه أن هناك ما يسمى باطعام الطعام الذى سئل فيه النبى صلى الله عليه وسلم — أى الإسلام خير — قال تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف — وفى إطعام الطعام يقول النبى الكريم — اطعموا الطعام تدخلوا الجنة بسلام فهاهنا أمران — زائر معروف وثواب إكرامه معروف — وضيف مجهد غريب إكرامه علامة على الإيمان بالله واليوم الآخر — ويقرب إليك هذا المعنى قول النبى صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه جائزته . قالوا : وما جائزته يارسول الله

قال : يومه وليلته والضيافة ثلاثة أيام ، فما كان وراء ذلك فهو صدقة عليه) فالصدقة لا تكون إلا لمحتاج وأيا ما كان فالمروءة والعرف والعادة على إكرام الضيف أيًّا كان . وتتفاوت درجات الثواب حسب حالة الضيف فالجائع والغريب ومن لا تربطك به صلة ، إكرامه ألزم وحقه أعظم — ومن أكرم شخصاً ابتغاء مرضاة الله أكرمه الله وأثابه ثواب المحسنين : ومن إكرامه إظهار البشاشة له والتبسط معه فى الحديث وإشعاره بأنه نزل على الرحب والسعة . وحل بمقدمه السرور ، وأن يسرع بتقديم الطعام له اقتداء بأبى الضيفان . خليل الرحمن سيدنا ابراهيم عليه السلام والتكلف فوق الطاقة مذموم . ولا يجمل بمن حل بساحته ضيف . أن يزجر خادمه أمامه ولا يحضر معه على الطعام إلا من يؤنسه ، ويدخل السرور على نفسه ، وعلى الضيف أن يتحلى بالأدب فى أكله ونومه وجلوسه وألّا يثقل على المضيف بطلب شىء معين . وألا يطيل مكثه فإن ذلك مما يبغض المضيف فيه . وليكافىء مضيفه على إكرامه بالدعاء له وإظهار السرور بما قام به نحوه .

وقد كان العرب يتفاخرون بإكرام الضيف . ولهم فى ذلك أشعار فى غاية الرقة ، كما كانوا يذمون أشد الذم . من ينأى عن إكرام ضيفه . يروى أن رجلا هرب من ضيفه فأنشد فيه شاعرهم :

يأيها النافر من ضيفه وهارباً من شدة الخوف
ضيفك قد جاء بزادٍ له فارجع تكن ضيفاً على الضيف

وخير ما يروى فى إكرام الضيف . حديث ضيف رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى رواه الشيخان عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : إنى مجهود — جائع — فأرسل إلى بعض نسائه . فقالت : والذى بعثك بالحق ما عندى إلا ماء . ثم أرسل إلى أخرى فقالت مثل ذلك حتى قلن كلهن مثل ذلك لا والذى بعثك بالحق ما عندى إلا ماء . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : من يضيف هذا الليلة . فقال: رجل من الأنصار : أنا يا رسول الله . فانطلق به إلى رحله — منزله — فقال لامرأته : أكرمى ضيف رسول الله صلى الله عليه وسلم . وفى رواية قال لامرأته : هل عندك شىء ، قالت : لا . إلا قوت صبيانى . قال : فعلّليهم بشىء وإذا أرادوا العشاء فنوّميهم . وإذا دخل ضيفنا فاطفىء السراج وأريه أنا نأكل فقعدوا وأكل الضيف . وباتا طاويين — جائعين — فلما أصبح غدا على النبى صلى الله عليه وسلم . فقال : (لقد عجب الله من صنيعكما بضيفكما الليلة) . وأحسب أن هذا الرجل بلغ بضيفه غاية الإكرام . فاستحق الجزاء الأوفى من الكريم المنان ، ويؤخذ من الحديث أن من نزل به ضيف وليس عنده ما يقدمه له فيلتمس له من يقوم بواجبه ولا غضاضة فى هذا ، وهذا ما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم كما فى الحديث المتقدم وقد رأينا فى بلادنا — وما زال إلى الآن — أن الضيف إذا نزل برجل وليس عنده ما يقربه به . طلب من أصدقائه وجيرانه

ما يكرم به ضيفه . فيجيبون طلبه بسرور وسماحة ومن مفاخر العروبة والإسلام إكرام الضيف . كان حاتم الطائى يأمر غلامه أن يوقد ناراً على جبال طيئ ويقول له :

أوْقِد فإن الليل ليل قرّ والريح يا غلام ريح صرّ
علّ يرى نارك من يمرّ إن جلبت ضيفاً فأنت حرّ

وكتب رجل من البخلاء إلى رجل سخى كريم ينصحه بالإبقاء على نفسه ويخوفه بالفقر إن استمر على سخائه وكرمه — فردّ عليه بقوله : يقول الله تعالى : « الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلا » وإنى أكره أن أترك أمرًا قد وقع لأمرٍ لعله لا يقع) .

فأطع مولاك وتحل بحلية إكرام الضيف . يكرمك الله فى الدنيا بالذكر الحسن . وفى الآخرة بجنات تجرى من تحتها الأنهار أعدّها لمن ألان الكلام وأطعم الطعام ، ومن أبواب النجاة وصنائع المعروف الإحسان إلى :

الجـــار

الجار معروف وهو مَن بينك وبينه أقل من أربعين منزلا من أى جانب من جوانب منزلك — مسلماً كان أو كافرا أجنبياً عنك أو قريباً لك — وكما يطلق الجار على جارك فى المنزل يطلق على جارك فى الحقل ، وجارك فى محل العمل وجارك فى موضع الدراسة

ومكان العبادة — ومن الأمثال المشهورة — اختر الرفيق قبل الطريق والجار قبل الدار، والمرء فى حاجة إلى جاره أكثر من حاجته إلى أقاربه فقد يكون القريب فى جهة نائية لا يستطيع إسعاف قريبه فى الوقت المناسب إذا نزلت به شدة لبعد الشقة : أما الجار ففى كل شأن يحدث، تجده معك فى الصحة والمرض . وفى الترح والفرح : إن سافرت فهو المدافع والأمين . وإن حضرت فهو المهنىء المسرور وهو على كل حال بمنزلة الأخ ، يعلم أسرار جاره ويطلع على خبايا بيته . ما حسن منها وما قبح ، ولمنزلة الجار وشدة اتصاله بجاره جاءت الآيات والأحاديث آمرة بالإحسان إليه ورعاية حقوقه قال الله تعالى : « وَاعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِى الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِى الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ » .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ما زال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه) . أى يجعل له نصيباً فى الميراث أسوة بالأقارب — وينفى الرسول الأكرم الإيمان عمن يؤذى جاره ويؤكد ذلك بالحلف ثلاثاً بالله فيقول : (والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن . قيل من يا رسول الله ؟ قال الذى لا يأمن جاره بوائقه) . والبوائق الظلم والشرور والإيذاء ويقول النبى صلى الله عليه وسلم فى التعريف بحق الجار : (ليس المؤمن الذى يشبع وجاره جائع)

وشكا رجل جاره إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكر إساءته له فقال له : (كف أذاك عنه ، واصبر على أذاه فكفى بالموت مفرقا) .

وقد بين الحكيم حق الجار فى قوله : أتدرون ما حق الجار إن استعانك أعنته ، وإن استقرضك أقرضته ، وإن افتقر جدت عليه ، وإن مات اتبعت جنازته ، وإن أصابه خير هنأته ، وإن أصابته مصيبة عزيته ، ولا تستطيل عليه بالبناء فتحجز عنه الريح إلا بإذنه ، وإذا اشتريت فاكهة فأهد له منها وإن لم تفعلْ فأدخلها سراً ولا تخرج بها ولدك . فيغيظ بها ولده ، ولا تؤذه بقتار قدرك — إلا أن تغرف له منها — .

وقرأت فى بعض الآثار أن الجار يتعلق بجاره يوم القيامة ويقول : يارب ، سل هذا لم أغلق بابه دونى ومنع رفده عنى؟؟ — ورأينا فى بلادنا فى حال الصفو أن الجار إذا طبخ أرسل منه إلى جيرانه ، وإذا خبز أرسل منه إلى جيرانه وإذا أهدى إليه قدم منها إلى جيرانه وكأنهم كانوا يفهمون وصية النبى صلى الله عليه وسلم لأبى ذر — (إن خليلى صلى الله عليه وسلم أوصانى . إذا طبخت مرقة فأكثر ماءها ثم انظر أهل بيت من جيرانك فأصبهم منها بمعروف) .

والجيران ثلاثة : — جار له حق واحد — وجار له حقان — وجار له ثلاثة حقوق — فالجار الذى له حق واحد هو الذى لا يدين بدينك وليس بينك وبينه قرابة فله حق الجوار ، والذى له حقان هو الجار المسلم ، فله حق الإسلام وحق الجوار — والذى له ثلاثة حقوق

— هو الجار القريب المسلم ، فله حق القرابة وحق الإسلام وحق الجوار — وإذا أردت أن تهدى إلى جيرانك وليس عندك ما يكفى الكل فلمن تهدى ؟ بين ذلك حديث عائشة رضى الله عنها قالت : قلت يا رسول الله إن لى جارين فإلى أيهما أهدى ؟ قال : إلى أقربهما منك بابا) . والإحسان إلى الجار من علامات الأخيار الأبرار — قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (خير الأصحاب عند الله تعالى خيرهم لصاحبه . وخير الجيران عند الله تعالى خيرهم لجاره) . ووصف النبى صلى الله عليه وسلم علاج الجار السوء حين شكا رجل له أذية جاره : فقد أمره أن يخرج متاعه فى الطريق فلما فعل سأل الناس لم هذا ؟ فكان الرجل يخبرهم بما فعل جاره معه فأخذوا يلعنونه . فتوسل الجار المسىء إلى جاره أن يعيد متاعه وأقلع عن إساءته : ومن أروع الأمثلة على الإحسان إلى الجار السوء ماروى من أن الإمام أبا حنيفة رضى الله عنه كان له جار يعمل طول يومه فإذا أوى إلى منزله فى المساء أخذ فى الشراب والعبث وأنشد يغنى :

أضاعونى وأى فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر

ولا يزال فى عبثه وغنائه حتى يغلبه النوم والإمام الأعظم يسمع صوته وعبثه فى كل ليلة . وفى ليلة سكت صوت جاره على غير عادته فسأل عنه ، فقيل له : اقتاده الشرطى إلى السجن . فلما صلى الصبح ركب بغلته وذهب إلى بيت الحاكم واستأذن عليه : فقابله بما يليق به من إكرام و اجلال وقال : ما حاجتك يا إمام ؟ فقال : جئت شفيعاً

فى جارى فأمر الأمير بإطلاق سراحه فوراً وكل من أخذ معه فى تلك الليلة ثم ركب أبو حنيفة بغلته وخرج وراءه جاره فقال له : يا فتى هل أضعناك ؟ قال : بل حفظت ورعيت جزاك الله خيراً عن حرمة الجوار وتاب إلى الله من عبثه ومجونه .

ورغب رجل اسمه ابن أبى الجهم — أن يبيع داره . وكان جارًا لسعيد بن العاص فعرض عليه المشترى مائة ألف درهم فقال له : هذا حسن ، وبكم تشترى جوار سعيد . فأجاب المشترى : ما رأيت جواراً يباع ، فقال ابن أبى الجهم : وأنا لست ببائعك دارى . وإنى لا أدع جوار سعيد ، وهو رجل يحب معاونتى — إن غبت سأل عنى وإن رآنى رحب بى ، وإن سألته أعطانى وإن لم أسأله ابتدأنى بالعطاء فلما بلغ ذلك سعيدا سرّ بكلامه وبعث إليه بثمن الدار وتركها له — وهذا نبل يهز العواطف ويشرح صدور المؤمنين ويعجبنى قول الشاعر :

تعيرنا أنّا قليل عديدنا فقلت لها : إن الكرام قليل
وما ضرّنا أنّا قليل وجارنا عزيز وجار الأكثرين ذليل

ومن أذى جاره ورّثه الله داره ، وفى الحديث أحسن إلى جارك تكن مؤمنا ومن الإحسان إليه ستر عورته ، وعدم التطلع إلى نسائه ومعاونته وسدّ خلته ، ودفع الأذى عنه وحمايته من الأشرار وبذل النصح له . وإظهار السرور بخيرته ، وإلى هنا نقف لنقدم لك من أبواب الخير واصطناع المعروف .

رعاية اليتيم

اليتم عنوان المذلة والهوان . تصور طفلا فقد أباه الذى كان يدخل السرور على نفسه ويخصه بالرعاية والحب والحنان .

أنظر إليه حين يرى أمثاله من الأطفال وقد تعلقوا بآبائهم ، تراه كسير الخاطر — كئيب النفس ، حزين الفؤاد — فى الأعياد والمواسم مهموم وفى غيرها مغموم — يتلمس حنان أبيه من معارفه وأصدقائه . تهفو نفسه إلى قبلة كقبلة والده . وإلى ضمة صدر كالتى كان يتمتع بها من أبيه : يطلب ما يشتهى فلا يجد من يحقق طلبه يتودد إلى أقاربه فلا يجد قلباً رحيما . يجفوه من كان يعطف عليه فى حياة أبيه ، فحياة اليتيم بلاء وعيشته شقاء . فقد فَقَدَ أعزّ شىء فى الوجود . وهل بعد الوالد من عزٍّ يرتجى أو نعيم يكون .

يتيم جفاه الأقربون فعظمـــه كسير وفقد الوالدين عظيم

ولما كان حال اليتيم على ما وصفنا . كان الإحسان إليه والبر به والحدب عليه . من أعظم القربات عند الله تعالى . فمن وقع تحت يده يتيم . فليكن أباً له بدل أبيه . يحنو عليه ويتكفل بشئونه ويعامله معاملة أولاده وليحذر إغضابه فى غير تأديب أو تهذيب فإن السماء تغضب لغضبه . والسحاب يبكى لبكائه .

دموعه ترقى إلى العرش العظيم : فاحذر من الزلزال إن بكى يتيم

وقد جعل الله تعالى من علامات التكذيب بيوم الدين . إذلال اليتيم . فمن أذل يتيما بإيذائه والتنكيد عليه لغير سبب موجب لذلك، فقد كذب بالله واليوم الآخر ، اقرأ قول الله تعالى :

(أَرأَيتَ الذى يكذّب بالدّين . فذلِك الذى يدعُّ اليتيم) .

إن الذى أُنعم الله عليه بأن جُعل تحت رعايته يتيما يستطيع أن يضمن على الله جنات النعيم ، بالإحسان إلى اليتيم والقيام بشئونه وحسن تربيته وإدخال السرور على نفسه يقول النبى صلى الله عليه وسلم : (أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا وأشار بالسبابة والوسطي وفرّج بينهما) وكافل اليتيم القائم بأموره — وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كافل اليتيم له أو لغيره . أنا وهو كهاتين فى الجنة ، وأشار الراوى وهو مالك بن أنس بالسبابة والوسطى) وقوله صلى الله عليه وسلم . له أو لغيره معناه قريبه أو الأجنبى منه فالقريب مثل أن تكفله أمه أو جده أو أخوه أو غيرهم من قرابته .

ومال اليتيم الذى ورثه عن أبيه نار حامية لمن يقرب منه لاغتياله قال الله تعالى: (إنّ الّذِينَ يأْكلونَ أَمْوالَ اليتامى ظُلما إنما يأْكلونَ فِى بطونِهِمْ ناراً وسَيَصْلَونَ سَعيرا) — فاحذر يا ولى اليتيم أن تبدد ماله أو تخلطه بمالك . أو تتصرف فيه بما ينقصه بل عليك أن تُنَمّيَهُ له بالتجارة أو الزراعة . وأن تنفق عليه منه بما يصلح حاله . وكما يجب عليك العناية بماله . يجب عليك أن تعنى بتربية روحه وتهذيب نفسه

وتجميل خلقه فإن حفظت ماله . وأعددته بالتعليم والتربية ليكون رجلا نافعاً لنفسه ولأمته . كافأك الله فى الدنيا بإسعادك بأولادك وفى الآخرة بصحبة سيد المرسلين فى جنات ونهر فى مقعد صدق عند مليك مقتدر. قال الله تعالى : « وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لو تَرَكوا مِنْ خَلفهمْ ذرية ضِعافاً خَافُوا عليهمْ فليتقوا اللهَ . ولْيقولوا قولاً سَدِيداً) و إذا بلغ اليتيم مبلغ الرجال دفع الوصى له ماله و إن كان الوصى على اليتيم غنياً فليتعفف عن أخذ أجرة من مال اليتيم و إن كان فقيراً فليأخذ بالمعروف الذى تعارف عليه المجتمع وحدده الدين قال الله تعالى : (وَيَسْألونكَ عَنِ اليتامى قلْ : إصْلاح لهم خير) . أى إصلاح أموالهم وتنميتها و إصلاح نفوسهم بالتربية والتعليم خير — ثم قال سبحانه : (وَمَنْ كان غنياً فليستعفف ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف)

إن اليتيم أمانة فى يد الوصى فليؤد الذى أؤتمن أمانته وليتق الله ربه واعلم أن إدخال السرور على اليتيم رقة فى العاطفة ورحمة فى القلب و إنما يرحم الله من عباده الرحماء . وقد يكون لليتيم فى الحياة شأن تطأطأ له الرؤس . بل إن من اليتامى من كانوا سعادة لأمتهم و بركة على العالم فهـذا رسول الله صلى الله عليه وسلم تربَّى يتيما لم يشأ الله له أن يرى فى الحياة والده . ومع ذلك بلغ من العظمة شأوا لا ينال تتقطع دون الوصول إليه أعناق الرجال .

ولأنه ذاق ذل اليتم كان كثير العطف على اليتامى فمن ذلك

ما يروى أنه صلى الله عليه وسلم — خرج فى يوم عيد فرأى صبياناً يلعبون وعليهم ثياب العيد . تشع البهجة فى حركاتهم ورأى صبياً يجلس كئيباً حزيناً . فقال له . لم لا تلعب مع أترابك فأجابه الصبى إنى يتيم وليس عندى ما ألبسه للعيد . فضمه إلى صدره الشريف و بكى . ورجع به إلى منزله الشريف وكساه حلة جديدة .

وقال له يا غلام : أما ترضى أن أكون لك أبا وعائشة أم المؤمنين لك أماً . فقال رضيت يا رسول الله. وخرج الصبى فخوراً يقول للصبيان أنا ابن محمد بن عبد الله ، فصلوات الله وسلامه عليك يامن كنت بالمؤمنين رحيما ، وإذا كان غرضنا من هذا الكتاب ذكر أبواب النجاة . فجدير بنا أن نذكر لك أمراً قل أن يسلم منه إنسان . ونبين لك علاجه وكيف تنجو منه والأمر الذى نعرضه عليك جد خطير . له فى حياتك أعظم الأثر ذلك هو :

« ضيق الصدر والأزمات النفسية »

قال الله تعالى (فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ) إن ضيق الصدر وما يجره من ويلات . وأزمات النفس وما تسببه من كوارث . ونفاد الصبر وما ينتج عنه من شقاء وعناء كل أولئك من الأمراض الخطيرة التى كثيراً ما تؤدى بأصحابها إلى سوء المصير . ولما كان

لكل داء دواء . ولكل علة طريق يفضي إلى الشفاء . لزمنا أن نبحث متلمسين طريق الخلاص من هذه الشرور التي تنغص حياتنا وتكدّر عيشنا ، فإذا تعرفنا على علة الداء . سهل علينا القضاء عليه قبل أن يقضي علينا ، ولقد قضى الله ولا رادَّ لقضائه أن تكون الحياة ميداناً صاخباً بالهموم حافلا بالبلاء مليئاً بالآلام والأسقام . تصطرع فيه النكبات . وتتزاحم على أهله النازلات . والإنسان بين ذلك في جهد وتعب ومشقة ونصب وإلى هذا يشير القرآن الكريم في قول الله تعالى (لَقَدْ خَلَقْنَا الإنْسَانَ فِي كَبَدٍ) أي في تعب وعناء .

سبحانك ربي علمت بحكمتك الأزلية أن الشدائد تكوّن الرجال فقضيت بها . فلا يزال الإنسان في شدائد من مبدإ خلقه إلى دخوله في رمسه . فمن ظلمة الرحم وضيقه إلى مجالدة في الحياة وجهاد مرير فيها ثم يعقب ذلك النازلة الكبرى — الموت — الذي يضع حداً فاصلا بين معتركين معترك الحياة الدنيا . ودار الآخرة . وللإنسان في هذه الحياة الدنيا آمال يرجو تحقيقها يحدوه الرجاء و يتملكه القلق لأمل ينشده و يخشى الحرمان منه . أو لشر يحذره و يخاف وقوعه به وقد يضيق صدره و يستولي القلق والحزن على قلبه . وتطير نفسه شعاعا لمحبوب فات نواله أو ضر نزل به . وقد يحدث ما نابه أو ما يتوهم أن ينزل به أزمة نفسية يغدو بها كئيباً كاسف البال يئوساً موزع النفس مضطرب الفؤاد ميت الروح قال الشاعر :

ليس من مات فاستراح بميت . إنما الميت ميت الأحياء
إنما الميت من يعيش كئيباً كاسفاً باله قليل الرجاء

والاستسلام لضيق الصدر والأزمات النفسية داء يوهن النفس ويضعف القلب ويقنط من زوال الخطب . فيشتد الكرب ويدوم الكمد ويستمر النكد . فيجيء الغد كالأمس فى غمه وبلائه وشره وشقائه . ويلازم النفس التشاؤم والتطير . وينقطع الرجاء . ويستعصى الخلاص . وهذه جميعاً بلايا لاتجلب خيراً ولا تدفع شراً ولا ترد فائتا ولا تحقق أملا . وفى ذلك سوء الحال وشر المآل . قالت الحكماء : (من قل صبره . وعظم عليه أمره وضاق عن حمل مانزل به صدره فقد تبين كفره) . فيخشى على من لازمه الجزع واستولت عليه الكآبة أن يذهب ذلك بإيمانه . ومن كلام بعض العلماء : (من كثر جزعه كثرت زلته . وعظمت علته . وبعد أمله وحبط عمله) . وكفى بضيق الصدر قبحاً أن الانتحار أثر من آثاره وأنه ليس من صفات من منحهم الله العقل . فهو لايكون إلا حيث العقول الكليلة . والقلوب المريضة والنفوس الضعيفة فلا يجمل بالإنسان الذى جُعل خليفة فى الأرض . خلق لعمارتها وصلاحها أن يكون غير أهل لنعمة الحياة السعيدة بالاستسلام لداء ضيق الصدر . وليجعل الأنبياء عليهم السلام له قدوة فى التخلص من هذا المرض الخطير . فهذا موسى عليه السلام لم يستسلم لضيق صدره حيث لاينطلق لسانه . فسأل ربه أن يعينه بأخيه هارون إذ هو أفصح

منه لسانا . فلا تختل دعوته . ولا تقصر حجته . وفى ذلك شرح لصدره وتيسير لأمره : قال تعالى حكاية لما يقول موسى لمولاه : «رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي . وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي . وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي . وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي أَشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي » . وقال سبحانه فى آية أخرى : « وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ . قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ : قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ . وَيَضِيقُ صَدْرِي . وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي . فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ » . وهذا نبى الله أيوب عليه السلام لما تزايد عليه البلاء قال : « رَبِّ إِنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ » . فأرشده الله إلى باب العلاج بقوله : « اضْرِبْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ » . أى أحزم أمرك وجالد الحالة التى أنت بها وستتغلب عليها وتنجو منها . وحذر الله نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم من هذا الداء الوبيل بقوله : « وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ » . ووصف له العلاج بقوله « وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ » . فالذى يقدر الحياة ويبصر بقلب سليم لا يستسلم لذلك الداء الوبيل . الذى يجعل الحياة جحيما . والشقاء مقيما . بل يتوسل بشتى الطرق للخلاص من شره والنجاة من هوله والمرء إذا أصيب بمرض فى جسمه بادر إلى علاجه وسلك كل طريق للشفاء . فجدير به أن يسرع فى العلاج من مرض ضيق الصدر الذى

يميت النفس . ويقتل الروح ويجعل الموت خيراً من الحياة . فبئست حياة الشقاء . وتعست أيام العناء ، ومن شرح الله صدره بالإسلام تيسر له علاج ذلك الداء وسعد بالشفاء . فمن هدى الإسلام — الرضا بالقضاء . فقد يظن العبد الخير فى شىء وهو شر محض فى الواقع ونفس الأمر . كما يظن الشر فى شىء وفيه كل الخير . « وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ . وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ » .

ولذا كان المؤمن القوى . وهو الواثق بأن مولاه لا يفعل به إلا ما فيه مصلحته . خيراً وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف الذى يجزع من الحوادث تنزل بساحته فتهتز أركان عقيدته . فترى المؤمن القوى إذا نزل به مهم أخذ فى مدافعته مستعيناً بحول الله وقوّته . فإن عجز عن مدافعته ولم يستطع له رداً ، لا يجلس جلسة الحزين المكتئب بل يرجع إلى إيمانه وثقته بالله فيقول : قدَّر الله وماشاء فعل . ولو كشف الغطاء عن المرء ، لعلم أن ما هو فيه خير له مما يتطلع إليه ويتمنى حصوله لنفسه : إذ الذى رعاه وهو فى بطن أمه وَرَبّاه طفلا ، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة ، وهو أعلم بما فيه خيره ومصلحته هو الذى وضعه هذا الوضع ، فيجب التسليم له ، والرضا عنه فى كل ما يفعله به والرضا فوق الصبر ، فقد تكره الشىء ينزل بك ولكنك تعتصم بالصبر فتنال أجر الصابرين . لكن الرضا أن ترى كل مايفعله ربك جميلا . وأن من

أحبه مولاه ابتلاه ليظهر للناس مكنون سرّه ، وهل هو من المؤمنين الراضين عن الله أو من الذين يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم وليثبت ذلك فى نفسك ويقوّى فى قلبك استمع لقول النبى الكريم صلى الله عليه وسلم : (إذا أحب الله عبداً ابتلاه ، فإن صبر اجتباه ، وإن رضى اصطفاه) . فالرضا بالقضاء فوق كونه ثمرة الإيمان ونتيجته يشرح النفس ويريح الفؤاد ويذهب الهم . وما أحسن قول الأول :

سلّم الأمر تجدنا نحن أولى بك منكا

فعالج نفسك الثائرة ، وضيق صدرك القائل بالرضا بقضاء الله وقدره ، ومن هدى الإسلام فى علاج هذا المرض الخطير الدعوة إلى الصبر فبالصبر يتسع الصدر من ضيق ، وتنفرج النفس من أزمات :

ألا بالصبر تبلغ ما تريد وبالتقوى يلين لك الحديد

فاستعن بالصبر على ما ينزل بك وعالج أمرك بالأناة والحكمة واحذر أن ينفد صبرك أو تعيا حيلتك . بل اجعل من هزيمتك فى أمر من الأمور مطيّة للانتصار فى محاولة مقبلة . وانتفع بأخطاء قد تقع فيها فتكون لك خبرة لسلوك طريق الصواب .

وقلّ من جد فى أمر يحاوله واستظهر الصبر إلا فاز بالظفر

ومن يتصبر يصبره الله . والله مع الصابرين .

ومن هدى الإسلام فى العلاج — أحياء الرجاء فى السلامة والحياة الصحيحة بالعمل فاقتل اليأس بالأمل وأحى الرجاء بالعمل .

وليكن لك من الإيمان زادا . ومن الثقة بالله عمادا — ومن يؤمن بالله يهد قلبه —

واعلم أن مايصيبك فى الدنيا هو خير لك على أى حال ففى الحديث يقول النبى صلى الله عليه وسلم : (عجباً لأمر المؤمن ، إن أمره كله له خير . وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن : إن أصابته سرّاء شكر فكان خيراً له . وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له) ويقول صلوات الله وسلامه عليه : (ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه) .

ومن العلاج أيضاً أن تنظر فى شئون الدنيا إلى من هو أسفل منك ولا تنظر إلى من هو فوقك . فإن كنت صحيحاً فانظر إلى المرضى وإن كنت فقيراً فانظر إلى من هو أفقر منك وهكذا . وإذا كنت فى بلد تراكمت عليك فيها البلايا فارحل منها إلى غيرها فإنك واجد فرجا قريبا — وإذا كنت فى قوم لا يحسنون عشرتك ولا يرعون حرمتك فاهجرهم إلى من يلذ معهم طيب المقام ومن أعظم العلاج أن تعلم أن الحياة قصيرة وأن أيامك معدودة وأنفاسك محدودة . فلماذا تقضى هذه الحياة القصيرة فى عناء وبلاء وغم وشقاء إنك عما قريب راحل عنها تبنى ما لا تقيم فيه . وتجمع ما لا تأكله .

فاعمل على مهل فإنك ميت واكدح لنفسك أيها الإنسان

فكأن ما قد كان لم يك إذ مضى وكأن ما هو كائن قد كانا

فلا تحمل نفسك من الهموم وضيق الصدر ما ينغص عيشك . ويذهب أُنْسَك . فإنك عما قريب موسد التراب قال الجاحظ فى كتاب البيان وجد مكتوبا فى حجر : يا ابن آدم لو رأيت يسير ما بقى من أجلك . لزهدت فى طويل ما ترجو من أملك . ولرغبت فى الزيادة من عملك . ولقصرت من حرصك وحيلك . وإنما يلقاك غدا ندمك لو قد زلت بك قدمك . أسلمك أهلك وحشمك . وتبرأ منك القريب وانصرف عنك الحبيب — وأنشد بعض الشعراء وأجاد :

من كان يعلم أن الموت مدركه والقبر مسكنه والبعث مخرجه
وأنه بين جنـــات ستبهجه يوم القيامة أو نار ستنضجه
فكل شىء سوى التقوى به سمج وما أقام عليه منه أسمجه
ترى الذى اتخذ الدنيا له وَطَناً لم يدر أن المنايا سوف تزعجه

فيامن ضاق صدره بأمر من أمور الدنيا تذكر الموت وسكراته والقبر وظلماته والحساب وشدته والصراط وحدته والنار وجحيمها . والجنة ونعيمها يهن لديك كل شىء .

ومن علاج ضيق الصدر أن تروح نفسك بالرياضة . والنكت المستملحة . والنوادر الطريفة . وقراءة قصص من نزلت بهم الشدائد ونجاتهم منها فقد يكون لك فى ذلك سلوى ولا بأس أن نعرض عليك طُرَفاً تسر النفس وتشرح الصدر تحت عنوان :

المزاح

النفس المكدودة — والذهن المتعب — والقلب المكتئب والفؤاد الحزين كل ذلك فى حاجة إلى ترويح . يسر النفس ويريح الذهن ويفرح القلب ويبهج الفؤاد . والنفوس تصدأ كما يصدأ الحديد . وجلاؤها السرور والمزاح المباح ما خلا من محرّم يغضب الله أو يفضى إلى عداوة تورث القطيعة والضغينة وفى المزاح الممنوع قالوا — المزاح استدراج من الشيطان واختداع من الهوى — وقال عمر بن عبد العزيز : اتقوا المزاح فإنه حمقة تورث ضغينة : وقال بعض الحكماء — إنما المزاح سباب إلا أن صاحبه يضحك — وقال بعض الأدباء — من كثر مزاحه زالت هيبته . ومن كثر خلافه طابت غيبته . وقال غيره : خير المزاح لا ينال وشره لا يقال . فنظمه النيسارى وأنشد :

شرُّ مزاح المرء لا يقال ... وخيره يا صاح لا ينـــال
وقد يقال كثرة المزاح ... من الفتى تدعو إلى التلاحى
إن المزاح بدؤه حلاوة ... لكنما آخره عداوة
يحتد منه الرجل الشريف ... ويجترى بسخفه السخيف

فإذا قصد المرء بمزاحه إدخال السرور على المصاحبين : والتودد إلى المخالطين : واختار جميل القول ومستحسن الفعل : أو أراد أن ينفى بالمزاح ما طرأ عليه من سأم وأحدث به من هم . فلا بأس به بل قد يكون

مستحباً فقد قيل فى الحكم — لابد للمصدور أن ينفث وينبغى الإقلال من المزح . فإن كثرته تذهب الهيبة وتودى بالمروءة . وما أحسن قول أبي الفتح البستى :

أفد طبعك المكدود بالجدّ راحة
يجمّ وعلله بشيء من المزح
ولكن إذ أعطيته المزح فليكن
بمقدار ما تعطى الطعام من الملح

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يمزح على هذا الوجه ولا يقول إلا حقاً ففى الحديث قال : (إنى لأمزح ولا أقول إلا حقاً) فمن مزاحه صلى الله عليه وسلم ما روى :

أن عجوزاً من الأنصار أتته فقالت يا رسول الله أدع لى بالمغفرة فقال : أما علمت أن الجنة لا يدخلها العجائز . فصرخت المرأة فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : أما قرأت من القرآن قول الله عز وجل : « إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً عُرُباً أَتْرَاباً » فأدخل على نفسها السرور ببشرى رجوعها بكراً كاعباً — وأتته امرأة أخرى فى حاجة لزوجها فقال لها : ومن زوجك ؟ فقالت : فلان . فقال لها الذى فى عينه بياض . فقالت لا . فقال بلى . فانصرفت عجلى إلى زوجها وجعلت تنظر إلى عينيه فقال لها ما شأنك فقالت : أخبرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن فى عينيك بياضاً فقال : أما ترين بياض عينى

أكثر من سوادها ، وقيل للشعبي : ما اسم امرأة إبليس لعنه الله فقال : ذلك نكاح ما شهدناه : وممن اشتهر بالمزاح من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو هريرة وصهيب بن سنان ونعيمان رضى الله تعالى عنهم جميعاً وقالوا فى نعيمان أنه أول من يدخل الجنة ضاحكا ومن مزاحه رضى الله تعالى عنه : أنه اشترى مرة عسلا ولم يدفع ثمنه وذهب بالبائع إلى بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمر البائع بالانتظار بالباب حتى يبعث له الثمن ودخل هو بالعسل إلى النبى صلى الله عليه وسلم بعد الاستئذان وقال هدية يا رسول الله . فقبله منه النبى صلى الله عليه وسلم ثم استأذن هو للخروج فأذن له وخرج . فقال للبائع انتظر فسيرسلون إليك الثمن الآن . فانتظر البائع حتى ملّ الانتظار ثم قرع الباب وقال: ألا تعطون الثمن لبائع العسل . فقال الرسول صلى الله عليه وسلم « هذه إحدى هنات نعيمان » أعطوا الرجل ثمن عسله ، ولما لقى نعيمان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هذه الحادثة سأله الرسول عنها . فقال يارسول الله أردت أن أبرّك فلم أجد شيئاً أقدمه لك فاحتلت حتى قدمت هذا .

ورأى نعيمان فى عهد عثمان بن عفان . رجلا ضريراً سائراً فى الطريق وعرف أنه يريد الخلاء . فقال له : أتريد الخلاء يا فلان . قال نعم . قال فامض معى ، وذهب به إلى المسجد فهمّ الرّجل بقضاء حاجته (فى المسجد) وقد رفع ثيابه لذلك فصاح به الناس . وقالوا إنك فى المسجد يا فلان . فقال مَن فعل بى هذا قالوا نعيمان : فأقسم ليضربن نعيمان بهراوته ضرباً

مؤلماً . و بعد حين من الزمن جاءه نعيمان وغير صوته . وقال له هل لك فى نعيمان فقال نعم وأين هو قال هاهو ذا قائم يصلى فى المسجد فهلمّ بنا إليه . فلما اقتربا من أمير المؤمنين عثمان بن عفان قال نعيمان دونك فاضرب نعيمان . فجمع الرجل قوته وضرب عثمان بن عفان ضربة قوية وهو قائم يصلى . ففزع الناس وقالوا له إنما تضرب أمير المؤمنين . فقال ومن دلنى عليه ؟ قالوا نعيمان . قال لا جَرَم لاَ أَضْمَرتُ له سوءًا بعد اليوم وهو فى حل مما نويته له ، والذى فعله نعيمان مع النبى صلى الله عليه وسلم عدّه رسول الله هناه من نعيمان فلا ينبغى أن نقلده فى هذا كما لا ينبغى أن نقلده فى حادث الأعمى ، فإن النبى صلى الله عليه وسلم لعن من أضل الأعمى عن الطريق . فلعل نعيمان لم يبلغه هذا الحديث ، فلا يحل فى دين الله أن نورط إخواننا بما يحدث لهم مضايقه . ولا أن نروع الناس بإخفاء متاعهم أو بإخبارهم أخباراً مزعجة كلها كذب واختلاق — كما يفعل الجهلاء فى شهر إبريل — كما لا يحل لنا أن نعطى إنساناً مخدراً لنضحك على ما يحدث منه من أفعال . فقد يؤدى المخدر بحياته فينقلب المزاح إلى مأساة وأى مأساة

و إليك طائفة من المزاح الفكه والنكت المستملحة لا أرى بأساً فى ذكرها ، كان المرحوم الشيخ عبد العزيز البشرى تغلب عليه الدعابة والمزاح : يسر أصدقاءه بنكاته المضحكة ومما يروى عنه أنه كان مع بعض إخوانه بالاسكندرية فخلع جبته ودخل دورة المياه — فرسم إخوانه

بالطباشير على جبته رأس حمار . فلما عاد ورأى الرسم قال : مَن مسح وجهه فى هذا . ومن مزاح سعادة حفنى محمود باشا أنه علم أن أخاه المرحوم محمد محمود باشا دعا المغفور له الشيخ المراغى لتناول طعام الغداء وكان يريد أن يتحدث إليه فى أمر هام ، ولذلك لم يدع أحداً سواه ، فلما علم شقيقه حفنى باشا بذلك زوّر بطاقات دعوة باسم المرحوم محمد محمود باشا ووجهها إلى عدد كبير من الكبراء يدعوهم لتناول الغداء فى اليوم والساعة المحددة لفضيلة المرحوم الشيخ المراغى ، ولما حان الموعد توافد العظماء على منزل محمد محمود باشا فدهش وبعد فترة أدرك أنها فعلة أخيه نكاية لعدم دعوته فاضطر إلى دفع مئات الجنيهات لستر المرقف وشراء مايكفى الوافدين على داره لإطعامهم .

ودخل عبد الله بن جعفر على عبد الملك بن مروان فوجده يتأوه فقال يا أمير المؤمنين لو أدخلت عليك من يؤنسك بأحاديث العرب و يباسطك استرحت فقال لست بصاحب لهو . فقال ما الذى تشكوه ؟ قال هاج بى عرق النسا فى ليلتى هذه فبلغ منى ماترى ، فقال : إن بديحا مولاى أرقى الخلق منه فأمر باحضاره فلما مثل بين يديه قال له عبدالملك يابديح ارق رجلى فقال يامولاى أنا أرقى الناس لها ، ثم وضع يده عليها وجعل يقول مالا يسمع فقال عبد الملك قد وجدت راحة بهذه الرقية أين فلانة إئتونى بها تكتبها لئلا يهيج بى الوجع بالليل ، فقال بديح : الطلاق يلزمه ما أكتبها إلا بتعجيل جائزتى فأمر له بأربعة آلاف درهم

فقال ياأمير المؤمنين الطلاق يلزمه ما أكتبها حتى تحمل جاتزتى إلى بيتى قال تحمل فحملت . فقال ياأمير المؤمنين الطلاق يلزمه مارقيت رجلك إلا مباسطة بقول نصيب :

ألا إن ليلى العامرية أصبحت على البعد منى ذنب غير منتقم

فقال ويلك ما تقول! فقال الطلاق يلزمه مارقيتك إلا بها فقال أكتمها على فقال كيف وقدسارت بها الركبان إلى أخيك بمصر فضحك حتى فحص برجليه وأعجبه هذا البسط والمزاح .

وحضر أعرابى على مائدة يزيد بن مزيد فقال لأصحابه أفرجوا لأخيكم فقال الأعرابى لاحاجة لى بإفراجكم إن أطنابى — سواعدى طوال فلما مد يده ضرط فضحك يزيد وقال يا أخا العرب أظن أن طنبا من أطنابك قد انقطع — وسرق أعرابى صرة فيهادراهم ثم دخل المسجد يصلى وكان اسمه موسى فقرأ الإمام . وما تلك بيمينك ياموسى فقال الأعرابى والله إنك لساحر ثم رمى الصرة وخرج .

ومما رواه الأصمعى على عهدته قال : ضلت بى إبل فخرجت فى طلبها وكان البرد شديداً فالتجأت إلى حى من أحياء العرب وإذا بجماعة يصلون وبقربهم شيخ ملتف بكساء وهو يرتعد من البرد وينشد :

أيا رب إن البرد أصبح كالحاً وأنت بحالى يا إلهى أعلم
فإن كنت يوماً فى جهنم مدخلى ففى مثل هذا اليوم طابت جهنم

قال الأصمعى فتعجبت من فصاحته وقلت له ياشيخ أما تستحي ؟

تقطع الصلاة وأنت شيخ كبير فأنشد يقول :

أيطمع ربى أن أصلى عارياً ... ويكسو غيرى كسوة البرد والحر
فوالله لاصليت ماعشت عارياً ... عشاء ولا وقت المغيب ولا الوتر
ولا الصبح إلا يوم شمس دفيئة ... وإن غيمت فالويل للظهر والعصر
وإن يكسنى ربى قميصاً وجبة ... أصلى له مهما أعيش من العمر

قال فأعجبنى شعره وفصاحته فنزعت قميصاً وجبة كانا على ودفعتهما إليه وقلت له : البسهما وقم فصل . فاستقبل القبلة وصلى جالساً وجعل يقول :

إليك اعتذارى من صلاتى جالساً ... على غير طهر مومياً نحو قبلتى
فمالى ببرد الماء يارب طاقة ... ورجلاى لاتقوى على ثنى ركبتى
ولكننى أستغفر الله شاتياً ... وأقضيكها يارب فى وجه صيفتى

قال الأصمعى فعجبت من فصاحته وضحكت عليه وانصرفت.

وأحسب أن هذه الحكاية على هذا الوجه مفتعلة للاغراب بها ، وصلى أعرابى مع قوم ، فقرأ الإمام : قل أرأيتم إن أهلكنى الله ومن معى أو رحمنا فقال الأعرابى : أهلكك الله وحدك ايش كان ذنب الذين معك فقطع القوم الصلاة من شدة الضحك . وطبعاً هذا مزاح لايجوز ولا يصح صدوره من رجل وقف بين يدى الله يناجيه .

وقالوا : إنفرد الرشيد وعيسى بن جعفر ومعه الفضل بن يحيى فإذا هم بشيخ من الاعراب على حمار وهو رطب العينين فقال له الفضل هل

أدلك على دواء لعينيك قال ما أحوجنى إلى ذلك . قال خذ عيدان الهواء . وغبار الماء فصيره فى قشرة بيض الذر وا كتحل به ينفعك: فانحنى الشيخ وضرَطَ ضَرْطَةً قوية وقال خذ هذه فى لحيتك أجرة وصفتك و إن زدت زدناك فضحك الرشيد حتى استلقى على ظهر دابته .

وجاء رجل إلى فقيه فقال أفطرت يوما فى رمضان فقال أقض يوما مكانه قال قضيت وأتيت أهلى وقد عملوا مأمونية فسبقتنى يدى إليها فأكلت منها فقال أقض يوما آخر مكانه قال قضيت وأتيت أهلى وقد عملوا هريسة فسبقتنى يدى إليها فقال أرى أن لا تصوم إلا ويدك مغلولة إلى عنقك .

وجاء رجل إلى بعض الفقهاء فقال له أنا أعبد الله على مذهب ابن حنبل و إنى توضأت وصليت فبينما أنا فى الصلاة إذ أحسست ببلل فى سراويلى يتلزق فشممته فإذا رائحته كرية خبيثة قال الفقيه عافاك الله خريت باجماع المذاهب وحكى الجاحظ قال مررت على خربة فإذا بها معلم صبيان ينبح نبيح الكلاب فوقفت أنظر إليه و إذا بصبىّ خرج من دار فقبض عليه المعلم وجعل يلطمه ويسبه فقلت عرفنى خبره فقال هذا صبي لئيم يكره التعليم ويهرب ويدخل الدار ولا يخرج وله كلب يلعب به فإذا سمع صوتى ظن أنه صوت الكلب فيخرج فأمسكه .

وقالوا تحاكم الرشيد وزبيدة إلى أبى يوسف القاضى فى الفالوزج واللوزينج أيهما أطيب فقال أبو يوسف أنا لا أحكم على غائب فأمر

الرشيد بإحضارهما وقدما بين يديه فجعل أبو يوسف يأكل من هذا مرة ومن هذا مرة حتى أكل نصف كل منهما ثم قال يا أمير المؤمنين ما رأيت أعدل منهما . كلما أردت أن أحكم لأحدهما أتى الآخر بحجته، والحكايات فى هذا الباب كثيرة وإن شئت زيادة فارجع إلى كتب الأدب مثل المستطرف فى كل فن مستظرف ونهاية الأرب فى فنون الأدب . وأدب الدنيا والدين ونوادر المعلمين للجاحظ . وما دمنا نتحدث فيما يدخل السرور على النفس لزم أن نبين لك حكم سماع :

الغناء

قال صاحب كتاب المستطرف فى باب الأصوات والألحان والغناء ، وما ذكرت ذلك إلا لأنى كرهت أن يكون كتابى هذا بعد اشتماله على فنون الأدب والتحف والنوادر والأمثال عاطلا من هذه الصناعة التى هى مراد السمع ومرتع النفس ورييع القلب . ومجال الهوى . ومسلاة الكئيب . وأنس الوحيد . وزاد الراكب لعظم موقع الصوت الحسن من القلب وأخذه بمجامع النفس .

والكلام فى سماع الغناء كثير وقد أطال الإمام الغزالى رحمه الله فى كتابه الإحياء فى بيان أقوال العلماء فى حل السماع وذكر أدلة القائلين بتحريمه وردّ عليها ردًّا مقنعا وكذلك فعل صاحب كتاب نهاية الأرب فى فنون الأدب والذى فهمته من كلام الإمام الغزالى وغيره — أن

الغناء كلام حسنُه حسن وقبيحه قبيح — فإن حرّك شهوة لغير الزوجة ودعا إلى فجور وتخنس وخلاعة فلا شك أنه حرام ، وصوت المرأة فى الغناء هل هو عورة أو غير عورة وهل يحل سماعه أو يحرم . فمن العلماء من لا يرى أنه عورة بشرط ألاّ يدعوا سماعها إلى فتنة . وألا تثير حركاتها وسكناتها شرا — روى البخارى ومسلم من حديث عقيل عن الزهرى عن عروة عن عائشة رضى الله عنها أن أبا بكر رضى الله عنه دخل عليها وعندها جاريتان فى أيام منى تدففان وتضربان والنبى صلى الله عليه وسلم متغش بثوبه فانتهرها أبو بكر رضى الله عنه . فكشف النبى صلى الله عليه وسلم عن وجهه وقال دعهما يا أبا بكر فإنها أيام عيد ، وفى رواية لمسلم يغنيان ويضربان فهذا الحديث نص فى جواز سماع صوت غناء المرأة ومن المعروف فى كتب السيرة أن النبى صلى الله عليه وسلم حين قدم من مكة إلى المدينة مهاجراً خرجت النساء والولدان لاستقباله وهن ينشدن

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع

ومن الأدلة على إباحة سماع الصوت الحسن امتنان الله تعالى على عباده به إذ قال سبحانه (يزيد فى الخلق مايشاء) فقيل هو الصوت الحسن ، وفى الحديث (ما بعث الله نبياً إلا حسن الصوت) وقال صلى الله عليه وسلم لله أشد إذناً للرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب (القينة لقينته)

وقالوا فى معرض المدح لداود عليه السلام إنه كان حسن الصوت فى النياحة على نفسه وفى تلاوة الزبور حتى كان يجتمع الجن والإنس والطير لسماع صوته وكانت الجبال ترجع صوته وكذلك الطير .

وقال النبى صلى الله عليه وسلم يمدح أبا موسى الأشعرى لقد أعطى مزماراً من مزامير آل داود .

والنغمات الموزونة لها فى الأرواح تأثير عجيب . فمن الأصوات مايفرح ومنها ما يحزن . ومنها ما ينوم . ومنها ما يضحك ويطرب وقد قيل من لم يحركه الربيع وأزهاره والعود وأوتاره . فهو فاسد المزاج ليس له علاج — انظر إلى الصبى فى مهده فإنه يسكته الصوت الحسن عن بكائه وتنصرف نفسه عما يبكيه إلى الإصغاء إليه . وتأمل الجمل مع بلادة طبعه يتأثر بالحُدَاء تأثراً يستخف معه الأحمال الثقيلة . ويستقصر لقوة نشاطه فى سماعه المسافات الطويلة وينبعث فيه من النشاط ما يسكره ويولهه فترى الجمال إذا طالت عليها البوادى واعتراها الإعياء والكلال تحت المحامل والأحمال وإذا سمعت منادى الحداء تمد أعناقها وتصغى إلى الحادى ناصبة آذانها وتسرع فى سيرها حتى تتزعزع عليها أحمالها ومحاملها وربما تتلف أنفسها من شدة السير وثقل الحمل وهى لا تشعر به لنشاطها ، حكى أبو بكر محمد بن داود . قال كنت بالبادية فوافيت قبيلة من قبائل العرب فأضافنى رجل منهم وأدخلنى خباءه فرأيت فى الخباء عبداً أسود مقيداً بقيد ورأيت جِمَالاً قد ماتت بين يدى البيت وقد بقى منها جمل وهو ناحل ذابل كأنه ينزع روحه . فقال لى العبد أنت ضيف

ولك حق فتشفع فىّ إلى مولاى فإنه مكرم لضيفه فلا يرد شفاعتك فى هذا القدر فعساه يحل القيد عنى قال . فلما أحضروا الطعام . امتنعت وقلت لا آكل ما لم أشفع فى هذا العبد . فقال صاحب البيت إن هذا العبد أفقرنى وأهلك جميع مالى . فقلت ماذا فعل .

فقال : إن له صوتاً طيباً وإنى كنت أعيش من ظهور هذه الجمال فحمّلها أحمالا ثقالا وكان يحدو بها حتى قطعت مسيرة ثلاثة أيام فى ليلة واحدة من طيب نغمته . فلما حطت أحمالها ماتت كلها إلا هذا الجمل الواحد . ولكن أنت ضيفى فلكرامتك قد وهبته لك . قال فأحببت أن أسمع صوته فلما أصبحنا أمرته أن يحدو على جمل يستقى الماء من بئر هناك فلما رفع صوته هام ذلك الجمل وقطع حبله ووقعت أنا على وجهى فما أظن أنى سمعت قط صوتاً أطيب منه — فتأثير السماع فى القلب محسوس ومن لم يحركه السماع فهو زائد فى غلظ الطبع وكثافته على الحيوانات . وإن بعض الطيور إذ أريد اصطيادها غنوا لها فتقع فى الشرك وفى هذا يقول الشاعر :

والطير قد يسوقه للموت إصغاؤه إلى حنين الصوت

ومن الذى ينكر تأثير غناء الحجاج فى القلوب والأرواح وتأثير نشيد الجنود فى ميادين القتال فى إلهاب حماستهم وإثارة حميتهم وبذل النفس والمال فى سبيل عزة الأوطان ، وإن من يتأمل حال عمال البناء والزراع ومن يقومون بأشق الأعمال . يرى أنهم ينشدون من الأشعار

بأصواتهم الجميلة ما ينسيهم مشاق العمل ويخفف عليهم ثقل الحياة وكان النبي صلى الله عليه وسلم ينقل الطوب مع القوم فى بناء مسجده الشريف وهو يقول :

اللهم إن العيش عيش الآخرة فارحم الأنصار والمهاجرة

وعامة أهل الحجاز يقولون إن الغناء مباح .

واحتجوا فى إباحة الغناء واستحسانه بقول النبي صلى الله عليه وسلم لعائشة رضى الله عنها . أهديتم الفتاة إلى بعلها ، قالت نعم . قال فبعثتم معها من يغنى ، قالت لم نفعل . قال أو ما علمت أن الأنصار يعجبهم القول : ألا بعثتم معها من يقول :

أتيناكم أتيناكم . . فحيونا نحييكم ولولا الحبة السمراء لم نحلل بواديكم

فلا بأس بالغناء إذا لم يكن فيه أمر محرم ولا يكره الغناء بل يستحب عند العرس والوليمة وأيام الأعياد . وعند القدوم من سفر غائب فإن فيه تحريكا لزيادة سرور مباح أو مندوب . وقد يتوصل بالألحان الحسان إلى خيرى الدنيا والآخرة فمن ذلك أنها تبعث على مكارم الأخلاق من اصطناع المعروف وصلة الأرحام والذب عن الأعراض والتجاوز عن الذنوب وقد يبكى الرجل بها على خطيئته ويتذكر نعيم الملكوت ويمثله فى ضميره .

وزعم أهل الطب . أن الصوت الحسن يجرى فى الجسم مجرى الدم فى العروق . فيصفوا له الدم وتنمو له النفس . ويرتاح له القلب وتهتز له

الجوارح وتخف له الحركات . ولذلك كرهوا للطفل أن ينام على أثر البكاء حتى يرقص ويطرب .

فما أجدرنا أن ننشر بين أبنائنا الغناء الذى يحض على الشجاعة والعفة ومكارم الأخلاق .

قالوا كان عبد الملك الملقب بالقس عند أهل مكة بمنزلة عطاء ابن أبى رباح فى العبادة — قيل إنه مرّ يوما بسلاّمة وهى تغنى فأقام يسمع غناءها فرآه مولاها فقال له هل لك أن تدخل وتسمع فأبى فلم يزل به حتى دخل فغنته فأعجبته ولم يزل يسمعها ويلاحظها النظر حتى شغف بها فلما شعرت بحالته غنته بقولها :

ربّ رسولين لنا بلّغا رسالة من قبل أن نبرحا
الطرف للطرف بعثناهما فقضيا حاجًا وما صرحا

قال . فأغمى عليه . وكاد يهلك فقالت له إنى والله أحبك قال . وأنا والله أحبك . قالت وأحب أن أضع فمى على فمك قال . وأنا والله كذلك . قالت فما يمنعك من ذلك . قال أخشى أن تكون صداقة ما بينى وبينك عداوة يوم القيامة .

أما سمعت قول الله تعالى (الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ) ثم نهض وعاد إلى طريقته التى كان عليها وأنشأ يقول :

قد كنت أعزل فى السفاهة أهلها فأعجب لما تأتى به الأيام
فاليوم أعذرهم وأعلم أنما سبل الضلالة والهدى أقسام

وقدم عبد الله بن جعفر على معاوية بالشام فأنزله فى دار عياله وأظهر من إكرامه ما يستحقه فغاظ ذلك فاختة زوج معاوية فسمعت ذات ليلة غناء عند عبد الله بن جعفر فجاءت إلى معاوية فقالت هلم فاسمع ما فى منزل الذى جعلته من لحمك ودمك وأنزلته بين حرمك . فجاء معاوية فسمع شيئاً حركه وأطربه فقال والله إنى لأسمع شيئاً تكاد الجبال أن تخر له . ثم انصرف فلما كان آخر الليل سمع معاوية قراءة عبد الله بن جعفر وهو قائم يصلى فنبه زوجته وقال لها اسمعى مكان ما أسمعتنى هؤلاء قومى ملوك بالنهار ورهبان بالليل .

ثم إن معاوية أرق ذات ليلة . فقال لخادمه اذهب فانظر من عند عبد الله بن جعفر وأخبره أنى قادم عليه . فلما جاء معاوية وجد مكانا خاليا فقال مجلس من هذا قال عبد الله هذا مجلس رجل يداوى الآذان يا أمير المؤمنين . قال إن أذنى عليلة فمره أن يرجع إلى مجلسه . وكان المجلس مجلس بديح المغنى فلما عاد إلى مجلسه قال له معاوية داو أذنى من علتها فتناول العود وغنى وقال :

ودع سعاد فإن الركب مرتحل وهل تطيق وداعا أيها الرجل

قال فحرك عبد الله رأسه فقال له معاوية لم حركت رأسك قال أريحية أجدها يا أمير المؤمنين . لو لقيت لابليت ولو سئلت لأعطيت . وقال معاوية كل كريم طروب .

وقالوا المغنى يغنى وكل مستمع يفهم مايميل إليه طبعه وما هدته إليه

نفسه — حكى الرقى عن ابن الدراج أنه قال كنت أنا وابن الفوطى مارين على دجلة بين البصرة والأبلة فإذا بقصر حسن له منظرة وعليه رجل بين يديه جارية تغنى وتقول : كل يوم تتلون غير هذا بك أحسن

فإذا شاب تحت المنظرة رث الثياب يستمع فقال يا جارية بالله وبحياة مولاك إلا أعدت على هذا البيت فأعادته فكان الشاب يقول هذا والله تلونى مع الحق فى حالى فشهق شهقة فمات . قال فقلنا قد استقبلنا فرض موقفنا . فقال صاحب القصر للجارية أنت حرة لوجه الله تعالى . فلما فرغوا من دفنه قال صاحب القصر أشهدكم أن كل شىء لى فى سبيل الله وكل جوارى أحرار وهذا القصر للسبيل — والمقصود أن هذا الشاب كان مستغرق الوقت بحاله مع الله تعالى ومعرفة عجزه عن الثبوت على حسن الأدب فى المعاملة وتأسفه على تقلب قلبه وبعده عن سنن الحق فلما قرع سمعه ما يوافق حاله سمعه من الله تعالى كأنه يخاطبه ويقول له :

كل يوم تتـــلون غير هذا بك أحسن

وروى أن ذا النون المصرى دخل بغداد فاجتمع إليه قوم من الصوفية ومعهم قوال فاستأذنوه فى أن يقول لهم شيئاً فأذن لهم فى ذلك فأنشأ يقول :

صغير هواك عـــذبنى فكيف به إذا احتنكا
وأنت جمعت فى قلبى هوى قد كان مشتركا

أما ترثى لمكتئب إذا ضحك الخلى بكى

فقام ذوالنون وسقط على وجهه .

وروى أن أبا الحسين النورى كان مع جماعة فى دعوى فجرى بينهم مسألة فى العلم وأبو الحسين ساكت ثم رفع رأسه وأنشدهم :

رب ورقاء هتوف فى الضحى ذات شجو صدحت فى فنن
ذكرت إلفاً ودهراً صالحاً وبكت حزناً فهاجت حزنى
فبكائى ربما أرقها وبكاها ربما أرقنى
ولقد تشكو فما أفهمها ولقد أشكو فما تفهمنى
غير أنى بالجوى أعرفها وهى أيضاً بالجوى تعرفنى

فتواجد القوم . وحصل لهم أنس وإيناس فرقت قلوبهم ودمعت عيونهم . وصفت أرواحهم . وفهموا من هذا الكلام ما يقربهم إلى الله و إلى نعيمه فتمايلوا طربا . وهاجت أشواقهم نحو محبوبهم الحق وهو الله تعالى — ومثل هذا قول ابن الفارض .

ولقد خلوت مع الحبيب و بيننا سرّ أرق من النسيم إذا سرى
عنى خذوا ولى اسمعوا و بى اقتدوا وتحدثوا بصبابتى بين الورى

فهذا كلام يستطيع كل سامع أن يفهمه على وجه يميل إليه ويفكر فيه . و إن كان قائله يقصد به معنًى بلغ من السمو أعلاه ومن التعلق بالله أنبل مداه ، وقال أبو بكر البصرى :

ولو قيل طأ فى النار أعلم أنه رضًا لكَ أو مدن لنا من وصالكا

لقدّمت رجلي نحوها فوطئتها سروراً لأنى قد خطرت ببالكا

وقال أيضاً :

وكان فؤادى خالياً قبل حبكم وكان بذكر الخلق يلهو ويمرح
فلما دعا قلبى هواك أجابه فلست أراه عن فنائك يبرح
رميت ببين منك إن كنت كاذباً وإن كنت فى الدنيا بغيرك أفرح
وإن كان شىء فى البلاد بأسرها إذا غبت عن عينى بعيشك يملح
فان شئت واصلنى وإن شئت لاتصل فلست أرى قلبى بغيرك يصلح

وكان بعض الوعاظ يأخذون بألباب سامعيهم . ويلعبون بقلوبهم ويختمون مجالسهم منشدين ومغنين بمثل قول الأول .

أين فؤادى أذابه الوجد وأين قلبى فما صحا بعد
يا سعد زدنى جوى بذكرهمُ بالله قل لى فديت يا سعد

ولا يزالون يرددون ذلك إلى أن تطير القلوب هلعاً وتجرى الدموع على الخدود من خوف المعبود .

ولقد رأيت فى زماننا المرحوم الشيخ الجربى — وقد تحدث إلى الناس عن الله وصفاته وأنه مطلع على أحوال العباد لاتخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء وأنه المنعم المتفضل وأنه المحبوب الذى تهيم القلوب بحبه . وتذوب الأفئدة عند ذكره . فيستولى على القلوب والعقول ويختم مجلسه بغناء ما أجله وأعظمه يقول والناس تردد ما يقول :

الكون كله مرايات وحبيبى ظاهر فيها

وهذا معنى بيت الشعر المشهور :

وفى كل شىء له آية تدل على أنه الواحـد

وقد يسأل سائل عن حكم سماع الغناء الذى نسمعه اليوم والذى تذيعه على الناس محطة الإذاعة المصرية :

مثل قول إحدى المغنيـات ياختى عليك وما أشبهه

فنقول للسائل فى غير تردد : إن سمـاع هذا حرام ومن يسمح بإذاعته يكون آثماً فإنه غناء يحض على الفجور ويسوق إلى الفاحشة . ويمكنك أن تضع القاعدة الآتية نصب عينيك وتطبقها على نفسك عند السماع وهى :

— إذا لم يثر الغناء شهوة ، ولم يؤد إلى فتنة ، ولم يعطل عن واجب فلا بأس بسماعه — وقد ساقنا إلى الـكلام فى المزاح والغناء . الـكلام عن ضيق الصـدر والأزمات النفسية فقد يكون فى بعض ذلك علاج وترويح للنفس وهناك موضوع يتصل بضيق الصدر وانشراحه ، أرى لزاماً علىّ بيانه لمـا يترتب عليه من آثار هامة فى حياة الإنسـان وهو موضوع .

التفاؤل والتشاؤم

أصل الـكلام فى هذا الموضوع الحديث الذى رواه البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

لاعدوى . ولا طيرة . ولا صفر ، وفر من المجذوم كما تفر من الأسد ، وفى بعض الروايات ولا هامة ، ويحسن بنا أن نبين لك معنى مفردات الحديث لتفهمها — العدوى مجاوزة المرض من المريض إلى غيره — (الطيرة) كعنبة التشاؤم — كانوا فى الجاهلية يتشاءمون بالطير إذ مرت بشمالهم ويتيامنون بها إذا مرت عن يمينهم . ثم توسعوا فأطلقوا التشاؤم ولو بغير الطيور — (الهامة) الرأس واسم طائر من طيور الليل أو البومة المعروفة أو صدى يصيح من قبر القتيل الذى لا يؤخذ بثأره يقول اسقونى — اسقونى — حتى يؤخذ بثأره ، و — صفر — هو الشهر المعروف ، كانوا يتشاءمون به لأنه فاتحة الحروب والأخذ بالثأر بعد الأشهر الحرم . لأنهم كانوا ممنوعين من ذلك فيها ، — المجذوم — هو المصاب بمرض الجذام المعروف ، وإنك إذا أمعنت النظر فى هـذا الحديث عرفت كيف تغالت العرب — قبل الإسلام — فى الاعتقاد بالخرافات والأوهام والأباطيل مثل اعتقادهم فى النوء وطرق الحصى وضرب الرمل . والغول والعيافة ممـا يحقق قول الله تعالى فيهم — أولئك كالأنعام بل هم أضل — فقد كانوا يجعلون هذه الأشياء المذكورة فى الحديث مؤثرة بنفسها بحيث لا تتخلف أبداً . ومفضية إلى نتائجها الحتمية فلا تشذ مطلقاً فقد كانت عندهم كالقوانين الطبيعية المفضية أسبابها إلى مسبباتها كالنار فى الإحراق والماء فى الإغراق . وإذا كنا نعجب مرة من غلو أهل الجاهلية فى اعتقادهم الخاطىء . فإنا نعجب

ألف مرة ومرة من فهم بعض العلماء أن هذه الأمور لا تؤثر البتة . فنفوا بذلك الفهم حكمة الله اللطيف الخبير الذى يربط المسببات بأسبابها ووقف نفع شيء على وجود شيء . وضرر شيء على وجود شيء آخر . ما دمنا نفهم أن هذا السبب لا يؤثر فى ذلك المسبب بنفسه بل بمشيئة الله يقع . ولو شاء رفع تأثيره لارتفع . وإليك لوناً مما فهمه بعض الناس فى هذا الحديث حتى جعلوه مثار جدل وخلاف . لا يفضى إلى نتيجة . ولا يركز فى نفس السامع عقيدة . قال بعضهم نفى رسول الله صلى الله عليه وسلم العدوى والطيرة وما بعدها فى قوله : (لا عدوى ولا طيرة) فيجب أن ننفيها نفياً باتاً فلا وجود لذاتها ولا أثر لها لأنه لا معنى لنفى الشيء إلا هذا ، ثم يجيء فى آخر الحديث فيرتطم بقوله : (وفر من المجذوم) فيقول — إن العدوى من الجذام ثابتة لا ننكرها للأمر بالفرار من المجذوم مع أن العدوى مطلقاً منفية فى صدر هذا الحديث فما علينا إلا أن ننفيها فى جميع الأمراض ونثبتها فى مرض الجذام ، وبهذا نكون قد عملنا بالحديث كله إثباتاً ونفياً ، ويكون الحديث كالمستثنى والمستثنى منه ، وهذا الفهم عجيب لا يقره الطب ولا الواقع ولا العقل ، وإذا قلت له إن تفريقك بين العدوى بمرض الجذام وبين العدوى بمرض معد آخر يتعارض مع الطب والواقع أجابك : إنى رجل شرعى لا طبى ولا واقعى ، وكأنه يعتقد أن الشرع شيء والطب والواقع شيء . وفاته أن الشرع ما كان ليخالف الواقع

والطب الصحيح أبداً . وأنه ما جاء الدين إلا لسعادة العالم ، فكيف يتناقض مع الطب والحس . ولو أنه جاز هذا لثارت الأطباء مستدلين بالطب والواقع ، وفى هذا — لا قدر الله — رفع الثقة بالدين و برسوله الأمين ، وقال البعض الآخر — إن رسول الله صلى الله عليه وسلم نفى العدوى فى قوله — لا عدوى . وأثبتها فى قوله — وفر من المجذوم فرارك من الأسد — فعلينا أن نعمل بالنصين وأن نحمل الكلام على محملين صحيحين منعاً للتضارب . فقوله لا عدوى — أى للمتوكلين الواثقين بالله — وقوله فرّ من المجذوم خطاب لغير المتوكلين المزعزعين فى الثقة واليقين لأنهم هم الذين يصابون بالعدوى دون المتوكلين وهذا — كما ترى أعجب مما قبله وتشتيت للفهم وتفريق بين طبقات الناس وإحالة على موازين لاتنضبط . فأين الموازين التى تعرف بها حالة الفارّ الحذر . إن كان من المؤمنين المتوكلين أو من المؤمنين المزعزعين — اللهم إنا نهينا عن سوء الظن بالناس . و إن اليقين فى القلوب لايعلمه إلا علام الغيوب ، وليت شعرى — هل خاطب النبى صلى الله عليه وسلم بأول الحديث المتوكلين من أصحابه وخاطب بآخره المزعزعين منهم . كلاّ فإن الحديث مرتبط بعضه ببعض ، والمخاطبون بأوله هم المخاطبون بآخره وفيهم أمثال أبى بكر وعمر . وناهيك بهم توكلا وثقة . وقال بعض العلماء — وقولهم الحق — إنما نفى رسول الله صلى الله عليه وسلم العدوى بالمعنى الذى

فهمته العرب فى جاهليتها ، وقد عرفت أن فهمهم فى أن العدوى مطردة لاتتخلف ولا تتوقف على شىء أصلا . ثم إذا هو أثبتها فى قوله : — وفرّ من المجذوم — فإنما يثبتها على خلاف ما فهمته العرب ، بل يثبتها كالأسباب العادية . إن شاء الله نفاذها نفذت وإن شاء وقفها وقفت . وإذا كان التأثير وعدمه محتمل فى العدوى ، فالأحوط أن ينهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه وأمته عن مخالطة المرضى وتكون من قبيل (دع مايريبك إلى مالا يريبك) ، ولا تعجب من نفى الشىء وإثباته فى حديث واحد فقد اختلفت الجهة بين النفى والإثبات ، فحيث نفاها يكون قد نفى تأثيرها بنفسها ، وكلها فى الاستقلال بذاتها . وكثيراً ماينفى الشىء وهو ثابت كما تقول .

لارجل فى هذا البلد — لاتريد مطلق رجل بل تريد الرجل الكامل ، وبهذا الحل وبهذا التوجيه يُفهم كل ماجاء من قول الرسول وعمله . وعمل أصحابه فى هذا المعنى . فإذا أردت الاعتراف بوجود العدوى وجدته فى قوله للرجل الذى أراد أن يضع يده فى يد الرسول ليبايعه فقال له الرسول — مكانك فقد بايعناك — أو قال له — ارجع فقد بايعناك — على مارواه مسلم .

وفى هذا الحديث اعتراف باحترام الأسباب وأنها مفضية إلى مسبباتها إلا أن يشاء الله غير هذا وتجد إثبات العدوى فى قوله صلى الله عليه وسلم (لايورد ممرض على مصح) ، رواه الشيخان . والممرض هو صاحب

الإبل المريضة ، والمصح هو صاحب الإبل السليمة . وقد نهى رسول الله عن الاختلاط بين الإبلين . وما ذاك إلا للتحذير من العدوى .

وإذا أردت زيادة فى إثبات العدوى فاستمع إلى عمر يوم امتنع مع الصحابة من الدخول فى أرض قد وقع فيها البلاء بالشام ، فقال له أبو عبيدة : أفراراً من قدر الله ؟ . فقال له عمر :

نعم ! نفر من قدر الله إلى قدر الله . وإذا أردت عدم الاعتداد بالعدوى وأنها كالأسباب العادية قد تؤثر وقد لاتؤثر . وأن الإنسان فى بعض الأحيان قد يفعل غير الأحوط ليهدم بذلك عقيدة راسخة فى النفس كاعتقاد أهل الجاهلية فى التأثير بالعدوى ولا بد .

فاستمع إلى ذلك فى قول الرسول على ماجاء فى الصحيحين . حين سأله الأعرابى : يارسول الله . مابال الإبل تكون كالظباء — يعنى نشاطاً وقوة وسلامة — فيدخل بينها البعير الأجرب فيجر بها فقال صلى الله عليه وسلم (فمن أعدى الأول) فهذا جواب يهدم مافهمته الجاهلية فى العدوى ويثبت الرجوع إلى مشيئة الله تعالى الذى بيده كل شىء — وكلمة طيره الواردة فى الحديث معناها التشاؤم — والتشاؤم عافاك الله منه شر وبلاء سمة الحمقى من الناس — يقتل العزائم ويوهن الهمم ويورث الكآبة : قال صاحب كتاب أدب الدنيا والدين :

اعلم أنه ليس شىء أضرّ بالرأى ولا أفسد للتدبير من اعتقاد الطيرة

— التشاؤم ومن ظن أن خوار بقرة أو نعيب غراب يرد قضاء أو يدفع مقدورا فقد جهل — قال الشاعر :

طيرة الناس لا ترد قضاء فاعذر الدهر لا تشبه بلوم
أى يوم تخصه بسعود والمنايا ينزلن فى كل يوم
ليس يوم إلا وفيه سعود ونحوس تجرى لقوم وقوم

فمن عقائد الجاهلية التشاؤم من سماع الغراب والبومة وإذا نزل بهم شرّ مصادفة فى مسكن أو عند حلول ضيف أو شراء دابة أو عقد زواج تشاءموا واعتقدوا أن هذا الشر الذى لحقهم إنما كان بسبب ذلك وأكثر العامة الآن يتشاءمون كما كان أهل الجاهلية يتشاءمون وقد يقولون إن التشاؤم حق ورد به الحديث الصحيح. ويذكرون لك ما رواه البخارى من حديث ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (الشؤم فى الدار والمرأة والفرس) ولا إزالة الخطأ فى فهمهم بيّن رسول الله صلى الله عليه وسلم معنى الشؤم فى هذه الأشياء الثلاثة — روى الطبرانى من حديث أسماء بنت عميس (قالت يا رسول الله . ما شؤم الدار . قال ضيق مساحتها وخبث جيرانها . قيل فما شؤم الدابة قال منعها ظهرها وسوء خلقها . قيل فما شؤم المرأة . قال عقم رحمها وسوء خلقها) — وورد فى حديث صحيح أن النبى صلى الله عليه وسلم (قال اليمن والشؤم. فى المرأة والمسكن والفرس . فيمن المرأة خفة مهرها . ويسر نكاحها وحسن خلقها ،

وشؤمها غلاء مهرها . وعسر نكاحها وسوء خلقها ويمن المسكن . سعته وحسن جوار أهله . وشؤمه ضيقه وسوء جوار أهله . ويمن الفرس ذله وحسن خلقه وشؤمه صعوبته) فقد بين النبى صلى الله عليه وسلم معنى الشؤم فى هذه الثلاثة . فكأن النبى صلى الله عليه وسلم يقول . من كان له إمرأة سيئة الخلق وكره صحبتها أو نزل بدار كره سكناها لضيقها أو سوء جوارها . أو أبغض دابة لشراستها . فليرح نفسه من المرأة بمفارقتها ومن الدار بالانتقال منها إلى غيرها و ببيع الدابة . فإنه إن فعل ذلك فقد أراح نفسه وزال ما يجده من الكراهة والألم وقد يقول قائل ما رأيك فيما رواه البخارى عن ابن عمر أنه قال — ذكروا الشؤم عند النبى فقال صلى الله عليه وسلم . إن كان الشؤم فى شىء ففى الدار والمرأة والفرس .) وأقول هذا حديث صحيح وهو يفيد أن الشؤم لو كان له وجود فى شىء لكان فى هذه الأشياء .فإنها أقبل الأشياء له . لكن لا وجود له فيها أصلا ، قال القاضى عياض . إن هذا الحديث محمول على استثناء نقيض المقدم أى لكنه لا شؤم — ومعنى ذلك أن الحديث ليس على ظاهره وإنما هو محمول على الكراهة التى منشؤها ما فى هذه الأشياء من مخالفة الشرع أو الطبع .

وذهب بعض العلماء إلى أن النبى صلى الله عليه وسلم إنما حكى ذلك عن معتقد الجاهلية وهو قول عائشة رضى الله عنها أى أن الجاهلية كانوا يعتقدون الشؤم فى هذه الثلاث فلا ينبغى لمن يؤمن بالله واليوم الآخر

أن يقلدهم فى هذا ويرى بعض العلماء . أن الحديث على ظاهره وأن هذه الأمور قد تكون سبباً للشؤم فيجريه الله تعالى عند وجودها بقدره ويرون أن لا بأس فى اعتقاد أن المذكورات أمارات وأن الفاعل هوالله تعالى وقد اختار هذا السيوطى وقد يستأنس لرأى السيوطى بما ورد فى الحديث الصحيح عن أنس رضى الله عنه قال : جاء رجل منا إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله إنا نزلنا داراً فكثر فيها عددنا وكثرت فيها أموالنا ثم تحولنا عنها إلى إخرى . فقلّت فيها أموالنا وقل فيها عددنا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إرحلوا عنها وذروها وهى ذميمة . وهذا صريح فى أن الدار تكون سبب الخير والشر وقد رد ابن قتيبه فى تأويل مختلف الحديث هذا الرأى وقال : إنه عليه الصلاة والسلام إنما أمرهم بالتحول لأنهم كانوا مقيمين فيها على استثقال لظلها واستيحاش بما نالهم فيها وقد جعل الله تعالى فى غرائز الناس وتراكيبهم استثقال ما نالهم السوء فيه وإن كان لا سبب له فيه . وحب من جرى على يده الخير لهم وإن لم يردهم به . وبغض من جرى على يده الشر لهم وإن لم يردهم به — ويؤيد هذا الكلام الحديث الذى معنا (لا عدوى ولا طيرة) — والحديث الذى رواه ابن مسعود وفيه يقول النبى صلى الله عليه وسلم (الطيرة شرك ، الطيرة شرك ، الطيرة شرك ، قال ابن مسعود وما منا إلا . . ولكن الله يذهبه بالتوكل) رواه أبو داود والترمذى ومعنى قول ابن مسعود . وما منا إلا . أى إلا قد وقع فى قلبه شىء من

ذلك ولكن الله يذهبه عن القلب بالتوكل عليه . وأيا ما كان فالتشاؤم سجية الجبناء يصدهم عن مقاصدهم . ويقعدهم عن بلوغ مآربهم . وقد كان شجعان الجاهلية لا يتطيرون ولا يتشاءمون ويمدحون من يكذب بالتشاؤم ، قال شاعرهم يمدح رجلا لم يعبأ بالتشاؤم :

وليس بهيّاب إذا شد رحله يقول عدانى اليوم واق وحاتم
ولكنه يمضى على ذاك مقدما إذا صد عن تلك الهناة الختارم

(الواق) الصرد و (الحاتم) الغراب الأسود و (الختارم) الرجل المتشائم — وقد وصف النبى صلى الله عليه وسلم علاجا للتطير — ذلك العلاج هو الأقدام والمضى فيما يريد فعنه صلى الله عليه وسلم قال : (ثلاثة لا يسلم منهن أحد — الطيرة — والظن — والحسد . فإذا تطيرت فلا ترجع . وإذا حسدت فلا تبغ وإذا ظننت فلا تحقق) وفى حديث آخر يقول صلوات الله وسلامه عليه : (إذا تطيرتم فامضوا وعلى الله فتوكلوا) ويقول فى حديث ثالث (من عرض له من هذه الطيرة شىء فليقل (اللهم لا طير إلا طيرك ولا خير إلا خيرك ولا إله غيرك) ومرّ طائر على جماعة فيهم ابن عباس فقال رجل منهم (خير خير) فقال ابن عباس لا خير ولا شر ، فواجبنا أن نعتقد أن كل الأمور من الله . وأن كل شىء بالقضاء والقدر . وكل مقدور فما منه مفر ، ويقابل التشاؤم — التفاؤل . فالأول نهى عنه الدين وبين أنه عقيدة الجبناء من غير المؤمنين . أما التفاؤل . فقد جبلت الغرائز على حبه

والأنس به لأنه يقوى العزائم ويبعث على الجد والنشاط ويحث على الظفر بالمطلوب ويدعو إلى الأقدام . فالجندى الذاهب إلى ميدان القتال إذا سمع اسم نصر مثلا — تفاءل بذلك فتقوى عزيمته على القتال . والمريض إذا سمع كلمة سلامة أو سالم — استبشر بها : والمكروب . إذا سمع كلمة فرج زال السأم عن نفسه — وطبعاً المتفائل لا يعتقد أن هذه الأشياء تجلب نفعاً أو تدفع ضررا . ولكن جبل الناس على الارتياح لكل ما يبشر بخير — ولذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعجبه الاسم الحسن . والفأل الجميل وفى الحديث عنه صلى الله عليه وسلم قال : (لا طيرة . وخيرها الفأل . قالوا وما الفأل يا رسول الله . قال الكلمة الصالحة يسمعها أحدكم) رواه البخارى وعلى المرء أن يتأول الفأل على أحسن تأويلاته . فإن البلاء موكل بالمنطق — روى أن يوسف عليه السلام شكا إلى الله تعالى طول الحبس . فأوحى الله تعالى إليه — يا يوسف أنت حبست نفسك حيث قلت : رب السجن أحب إلى : ولو قلت العافية أحب إلى لعوفيت . وحكى أن المؤمل بن أميل الشاعر لما قال يوم الحيرة :

شفّ المؤمل يوم الحيرة النظر ليت المؤمل لم يخلق له بصر

عَمِيَ فأتاه آت فى منامه فقال له هذا ما طلبت — وهذا كقولهم الشؤم عند التشاؤم .

فدع التشاؤم جانباً واستبشر بالحياة وما فيها من نعيم وجمال فإن

الفشل فى الحياة للمتشائمين . والفوز والفلاح للمتفائلين الذين يقدمون على أعمالهم بعزائم قوية . تدفعهم إلى المغامرة لبلوغ أهدافهم فى الحياة فتراهم فى أعمالهم أشداء . وبين الناس أعزاء . وعند الله أتقياء ، وكلمة صفر الواردة فى الحديث المراد به الشهر المعروف — وكانوا فى الجاهلية يتشاءمون منه لأنه موعد لأخذ الثأر واضرام نار الحرب فبين النبي صلى الله عليه وسلم . أن الشهر المذكور لا شأن له فيما يصيبهم من الشر فيه . إنما ذلك بفعلهم وسوء صنيعهم . وقيل إنهم كانوا إذا جاء شهر صفر وأرادوا ألا يكون فيه قتال جعلوه شهراً حراماً من الأشهر الحرم . وأحلوا مكانه شهر المحرم وهو شهر حرام أبدا — فيكون المعنى لا صفر — أى لا صفر حرام كما زعمتم أيها الجاهلون فإن التحليل والتحريم شأن الله جل جلاله . والناس لا يملكون أن يجعلوا هذا حراما — وهذا حلالا تبعا لأهوائهم وميولهم — وكلمة الهامة الواردة فى الحديث قيل هى شبح القتيل أو طائر يتكون من عظامه ويطوف حول قبره ويصيح بقوله اسقونى — اسقونى . ولا يسكن حتى يأخذوا بثأره — ومن العجيب ان هذا الذى كان يعتقده أهل الجاهلية يعتقده كثير من عوام المسلمين فيزعمون أن عفريت القتيل يخرج من مكانه ويتشكل بأشكال مخيفة . وهذا جهل بالدين وتعلق بخرافات وأوهام ما أنزل الله بها من سلطان . فالقتيل لا عفريت له ولا طائر يتكون من عظامه ويطوف حول قبره . بل إن كان مظلوما فالله ينتقم له ،

وإن كان ظالماً فقد انتقم منه بسبب ظلمه . ومن يتتبع خرافات العوام يرى أننا فى جاهلية تشبه الجاهلية الأولى أو تزيد عليها . والعلماء مسئولون بين يدى الله عن تبليغ دينه للناس وعن تصحيح عقائدهم وتطهيرها مما كان عليه أهل الجاهلية ، وأرى لزاماً علىَّ أن أتبع ما تقدم بكلمة عن (أوهام العامة وخرافاتهم) والأصل فى هذا أن الإسلام جاء لصيانة الأذهان من دنس الأوهام ، ولحفظ العقول من التلوث بالخرافات . فالخرافات حجاب بين العقل والمعلومات الصحيحة النافعة .

والخرافات بضاعة الدجالين الذين يشوشون على الناس حياتهم ، ويفسدون بها عقائدهم الحقة . والإسلام عنى أول ما عنى بصقل العقول بالتوحيد ، فالعاقل لا يرى لغير الله أثراً فى نفع أو ضر فهو المعز وهو المذل وهو المانح ، وهو المانع ، فالأشياء كلها منه وإليه ولا أثر لغيره سبحانه فى شىء من الأشياء .

وخرافات العامة لا حصر لها وكلها ضرر فى الدين والدنيا معاً ، ونذكر لك منها ما شاع فى بلادنا لتعمل من جانبك على تطهير عقول من يصدقونها ليكون لك أجر الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر .

فمن أوهامهم : تعليق التمائم والحروز لتقيهم من الآفات ، وتدفع عنهم العاهات ، وهذا جهل وضلال ، فلا واقى من الآفات . ولا مانع من العاهات إلا الله تعالى الذى بيده كل شىء وهو على كل شىء قدير : وقد نهانا الرسول صلى الله عليه وسلم عن فعل هذا ودعا على من يفعله

بقوله : (من علّق تميمة فلا أتم الله له ، ومن علّق ودعة فلا أودع الله له) وعن عيسى بن حمزة قال : دخلت على عبد الله بن حكيم وبه حمرة . فقلت : ألا تعلق تميمة ؟ فقال : نعوذ بالله من ذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من علّق شيئاً وُكِلَ إليه) وعن عمران بن حصين رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أبصر على عضد رجل حلقة فقال : ويحك ما هذه ؟ قال من الواهنه ، قال أما إنها لا تزيد إلا وهناً ، أنبذها عنك فإنك لو مت وهى عليك ما أفلحت أبداً) فهذه الأحاديث الصحيحة ، صريحة فى النهى عن تعليق الخرز والودع والخيوط المعقودة وإن هذا جهل وضلال ووبال ، وهى من خرافات العجائز وأوهام الدجالين .

ومن الخرافات الشائعة أن الطفل إذا وقع على الأرض سمت أمه عليه وعلى أخته معه وهى تعتقد أن له أختاً من بنات الجن — وهذا جهل فاضح لا يليق بأم مسلمة تؤمن بالله وتصدق بما جاء به رسول الله ومن الخرافات الشائعة أيضاً — ما يتحدث به المخرفون من أن بغلة تهبط من السماء ليلة عاشوراء . وهذه البغلة فى زعمهم تحمل الكثير من الجنيهات لصاحب النصيب فيحث الأب إبنه والوالدة بنتها لسؤال الله أن يكون ذلك من نصيبهم فيرى الأطفال فى منامهم أحلاماً فى هذا المعنى لاشتغال أرواحهم بهذه الخرافة وأعجب من هذا ما يحدث عند خسوف القمر فإن الآباء يأمرون أولادهم بالقرع على الصفائح والنحاس

وهم يقولون يا بنات الحور سيبوا القمر — ويظنون أيضاً أن الشمس تجرها الملائكة على عجل وأنها تغرق فى البحر فيبتلعها حوت — وكل هذا جهل وضلال وقد بين لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ما نفعل إذا كسفت الشمس أو خسف القمر وما ذاك إلا الصلاة والاستغفار والضراعة إلى الله أن يكشف الكرب — ومن الخرافات أن الطفل إذا أصيب بالكساح — لين العظام) تضعه أمه على باب المسجد فى يوم الجمعة وتقيد رجليه وفى حجره حمص — فإذا خرج أول مصل طلبت أم الطفل منه أن يحل قيده فيفعل ذلك قائلا : ربنا يا بنى يحل قيدك) وتكرر هذه العملية ثلاث جمع فيبرأ فى زعمهم من الكساح ويمشى — وهذا كذب وضلال — والمطلوب فى مثل هذا أن يعرض جسم الطفل للشمس ما عدا رأسه كل يوم ساعة على الأقل مع إعطائه غذاء صحياً خفيفاً — ومن خرافات النساء أن المرأة التى يموت أولادها وتسمى (مقرونة) أى لها أخت من الجن تصيب أولادها فيؤتى لها بفرخة سوداء ليس فيها إشارة وتذبح وتنظف ويحفر لها حفرة فى الموضع الذى ولد فيه المولود وتدفن كما هى فى تلك الحفرة مع خلاص المولود عقب الوضع يفعلون ذلك ليعيش المولود . حيث قد صالحوا القرينة بالفرخة بدل المولود — وهذه عقيدة مقدسة عند كثير من النساء وهذا كما ترى سفه وخرافة والواجب فيمن يتكرر موت أطفالها أن تبحث عن السبب المعقول ؛ فقد يكون أحد الأبوين أو كلاهما مصاباً بمرض

الزهرى فإذا عولج هذا المرض عاشت الأطفال فى الغالب ومن الخرافات الشائعة : ما يرتبه الجهلاء على اختلاج العين ويقولون : إن العين ترف فينتظرون خيرا أو يتوقعون شرا ، واختلاج العين لا شأن له فى ذلك فقد يحدث من تغير الدم — كما أن من الخرافات ترك السفر فى أيام معينة فإن الأيام كلها لله — وبعض الناس يترك أكل اللبن فى يوم الأربعاء معتقداً أن أكله فى هذا اليوم فيه ضرر كبير. ومن الخرافات الذهاب إلى المنجمين وضاربى الرمل وقارئى الكف لكشف المغيبات وهذا ضلال ووبال . ومن الناس — من يتمسح بجدار أو عمود ومنهم من يعظم شجرة أو يتبرك بحجر وهذا من أفعال الجاهلية .

قال صاحب كتاب الإبداع — ومن أوهام العامة اعتقادهم فى كثير من أضرحة الأولياء اختصاصات كاختصاص الأطباء . فمنهم من يذهب بالأطفال المرضى إلى بعض الأضرحة ويلقونهم فيها يوم الجمعة من الزوال إلى الفراغ من صلاتها يحبسونهم فى الأضرحة ويتركونهم فيها يبكون ويصيحون ويبولون ويتغوطون على قبر ذلك الولى — هكذا يفعلون ثلاث جمع فيشفى — ومنهم من يزعم فى ضريح سيدى أبى السعود الجارحى بمصر القديمة رحمه الله أن زيارته على شروطها المعهودة تقى من مرض الجان — وعندهم من الأضرحة ما ينفع فى مرض العيون . ومنها ما يشفى من مرض الحمى . ومنها ما ينفع لتفريج الكروب وكل هذه ضلالات وأوهام لا أصل لها ولكن أوحى بها

إليهم شياطين الأضرحة الذين لا يرون العيش والارتزاق إلا من النذور التى تأتيهم من العامة بهذه الوسيلة القبيحة) اه ومن الخرافات والضلالات التبرك بعجل العزب فى الوجه البحرى وفحل السيد البدوى فى الوجه القبلى وهذا شرك وخبال ، ومن الخرافات أيضاً تحريم الخياطة يوم الجمعة أو يوم عرفات . وعدم كنس البيت ليلا لأن الكنس يؤذى الجن فى زعمهم ومن الخرافات العجيبة أن المرأة العاقر أو التى تأخر حملها تصعد فوق منارة ويعتقدون أن ذلك يورث الحمل وهناك ضلالات وأوهام لا يحصيها العد كتشاؤمهم من الدخول بنحو اللحم أو البلح الأحمر على المرأة فى أيام نفاسها زاعمين أن ذلك (يكبسها) ويمنع نزول اللبن للطفل ومثل دخول العروس من بين رجلى أم زوجها لتعيش مطيعة لها وهناك طاسة الطربة ، والمشاهرة ، والصبارة ، وغرز المسامير فى الشجر وتعليق الخرق ببوابة المتولى والشحذ على الأطفال فى موسم عاشوراء . وبخور عاشوراء وضرب المندل الخ الخ .

ولا أدرى من تسبب فى نشر هذه الخرافات . ومن ابتدعها وكلها تدخل فيما يسمى علم (الركة) ويخيل إلىّ أن هذه الكلمة معناها خرافة وأن منشأ ذيوع هذه الخرافات وأمثالها هو الجهل بحقيقة الدين فواجب العلماء والمثقفين — محاربة هذه الخزعبلات و بيان ضررها للجهلاء الذين يقعون فريسة للدجالين ولا أحسب أن بلداً راجت فيه هذه الخرافات كما راجت فى بلادنا مع كثرة المتعلمين — ولقد رأيت طلعة الخليفة

فى السيد البدوى وفى كثير من البلاد ، ورأيت من يتمسحون بالصارى ويطوفون حوله — ورأيت الذاكرين على الرباب والمقبِّلين للأعتاب . ومن يأكلون الثعابين والمسامير والزجاج — ورأيت المتمشيخين بطبولهم وأعلامهم يأخذون الأتاوات ويجمعون العادات . ويطوفون بالبلاد لا لنشر العلم وتطهير القلوب من الجهل وإنما للاحتيال على البسطاء بإسم اظهار الكرامات ورأيت كل طريقة تلعن أختها — وأتباع كل شيخ تعادى أتباع الآخر — ورأيت من هؤلاء وهؤلاء من يخوف الناس من العلماء الذين يبينون للناس أحكام دين الله — ويظهرون محاسن الإسلام للعباد ، ورأيت فى الأضرحة شيوخاً لهم لحىً وعليهم عمائم . يشيرون على الزائرين بالطواف حولها والتمسح بأخشابها وحديدها ويذكرون لصاحب الضريح من الكرامات وخوارق العادات مالا يصح أن يكون إلا لله .

ورأيت بعض من يحملون شهادة العالمية يقفون أمام شيخهم الجاهل وقفة ينبغى أن لاتكون إلا لله رب العالمين ، وكما رأيت هؤلاء المتمشيخين الجهلاء الذين نشروا الخرافات والخزعبلات بين العوام .

رأيت علماء الدين وورثة الأنبياء — شغلوا أنفسهم بتوافه الأمور — فهذا عالم يتكلم فى الوسيلة ويثبتها ، وآخر ينفيها ، وهذا يرى العذبة من الإسلام — وغيره يراها من التنطع فى الدين — وثالث يقول بالصلاة والسلام على النبى صلى الله عليه وسلم عقب الأذان . ورابع يرى أن

هذا بدعة وضلال — والعوام فى حيرة بين هؤلاء وهؤلاء .

ورأيت رجال الدين من الأجانب يعملون ولا يتكلمون .

على كواهلهم أقيمت المعابد والملاجئ والمدارس والمصحات . ومنهم من كرّس حياته لخدمة الفقراء ومعالجة المرضى . ومنهم من وقف حياته للاختراع واستنباط ما يفيد . ومنهم من وقف جهوده لإسعاد ذوى العاهات ، والبائسين .

قوم شغلوا بالجهاد فى الحياة ، وبالعمل الدائب النافع البارز . ومن أراد أن يعرف ذلك فعليه أن ينظر إلى منشآتهم فى القاهرة والإسكندرية وأسيوط وغيرها حتى فى القرى النائية والصحارى المُجْدِبة .

أما نحن فعملنا كلام ، وحالنا خصام ، فيما لا يفيد — نترك كبائر المعاصى تتفشى فى أوساطنا ، والخرافات تشيع بين عامتنا ، ونشتغل بلغو الكلام : فى التوسل والوسيلة ، والعذبة الجميلة — فمتى نفيق من سُباتنا ونقوم بالمطلوب منا ؟ ! .

متى نكون للشعب قادة ، وللحكام سادة ، كما كان سلفنا الصالح . اللهم إن الهدى هُدَاك ، فاجمع قلوبنا على نفع العباد ، وإسعاد البلاد .

ولما كان سبب ذيوع الخرافات ، وشيوع المخازى والمنكرات ، عدم قيام العلماء بواجبهم فى إرشاد العامة . وإهمال ولاة الأمور فى تأديب الدجالين ، والضرب على أيدى العابثين ، الذين يجاهرون بارتكاب كبائر الذنوب من شرب الخمور ولعب الميسر وترك الحبل للنساء العابثات والرجال العابثين ، وجب أن نبيِّن حُكم :

الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، أساس الدين ، وعنوان الفلاح وسبيل النجاة ، وتركه يورث الشقاء والانحلال ، ويودى بالأمة إلى مهاوى الفساد والاضمحلال . والمنكرات إذا شاعت فى أمة من الأمم ، ولم تجد من يحاربها من العلماء باللسان ، ومن الحكام بسيف السلطان — هوت إلى الحضيض . وانقلب عزها إلى ذل ، وسعادتها إلى شقاء ، واستقلالها إلى احتلال . ويسلط الله عليها من يذيقها العذاب والهوان . ولن ينجيها من ذلك أن يكون فيها قوم صالحون تركوا الفساد يستشرى فى جسم الأمة وشغلوا بإصلاح أنفسهم ، وأهملوا شأن العامة من الناس . ولن ينجيها كذلك وجود قبور الأولياء والشهداء فى أرضها والتمسح بأعتابهم والوقوف ببابهم . إنما ينجيها من ذلك أن يشمِّر العلماء ويجِدُّوا فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وقيام الولاة والحكام بواجبهم من تأديب المفسدين والضرب على أيدى العابثين ، فقديما قالوا : (يَزَعُ الله بالسلطان مالا يزع بالقرآن) . وقالوا : (إثنان إذا صلحا صلح الناس وإذا فسدا فسد الناس : العلماء والأمراء) وأحسب أن صلاح الأمراء فى صلاح العلماء . فإن العلماء بما لهم من المهابة والإجلال والتفاف العامة حولهم يستطيعون من غير شك تقويم من يعوج من الأمراء . ويرحم الله القائل :

إن الأكابر يحكمون على الورى وعلى الأكابر تحكم العلماء

وأقصد بالأمراء والكبراء ذوى السلطان ومن بيدهم مقاليد الأمور . فإن التهاون معهم فيما يخالف الدين و يغضب رب العالمين ، ينتج أسوأ النتائج ، ويجر الأمة إلى الفساد والهلاك ، فإن العامة سريعوا التقليد للحكام والأمراء فى الخير والشر على السواء . وقد روى الحسن البصرى رحمه الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تزال هذه الأمة بخير تحت يد الله وفى كنفه ، ما لم يمالىء قراؤها — علماؤها — أمراءها ولم يترك صلحاؤها فجارها . ولم يمار أخيارها أشرارها . فإذا فعلوا ذلك رفع عنهم يده . ثم سلط عليهم جبابرتهم فساموهم سوء العذاب . وضربهم بالفقر والفاقه وملأ قلوبهم رعباً » فهم العلماء هذا الكلام ، فكانت لهم مواقف صدق مع الحكام أرضوا بها رب العالمين — فمن ذلك ماروى أن ابن السماك وكان من العلماء الأجلاء لما دخل على هارون الرشيد قال له عظنى ، قال يا أمير المؤمنين . إن الله لم يرض لخلافته فى عباده غيرك . فلا ترض لنفسك من نفسك إلا بما رضى الله به عنك . فإنك ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنت أولى الناس بذلك . يا أمير المؤمنين من طلب فكاك رقبته فى مهلة من أجله . كان خليقاً أن يعتق نفسه . يا أمير المؤمنين من ذوقته الدنيا حلاوتها بركون منه إليها . أذاقته الآخرة مرارتها بتجافيه عنها . يا أمير المؤمنين ناشدتك الله أن تقدم إلى جنة عرضها السموات والأرض وقد دعيت إليها وليس لك فيها نصيب .

يا أمير المؤمنين إنك تموت وحدك ، وتحاسب وحدك ، وإنك لا تقدم إلا على نادم مشغول . ولا تخلف إلا مفتوناً مغروراً و إنك و إيانا فى دار سفر وجيران ظعن .

وقال سفيان الثورى لما حج المهدى قال لا بد لى من سفيان فوضعوا لى الرصد حول البيت فأخذونى بالليل . فلما مثلت بين يديه أدنانى . ثم قال : لأى شىء لا تأتينا فنستشيرك فى أمرنا . فما أمرتنا من شىء صرنا إليه . وما نهيتنا عن شىء انتهينا عنه ، فقلت له : كم أنفقت فى سفرك هذا ؟ قال : لا أدرى ، لى أمناء ووكلاء ، قلت فما عذرك غداً إذا وقفت بين يدى الله تعالى فسألك عن ذلك . لكن عمر بن الخطاب رضى الله عنه لما حج قال لغلامه . كم أنفقت فى سفرنا هذا قال يا أمير المؤمنين . ثمانية عشر ديناراً . قال ويحك أجحفنا ببيت مال المسلمين .

ودخل العالم العامل عمرو بن عبيد على الخليفة المنصور فقرأ — وَالْفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ — حتى بلغ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادْ لمن فعل مثل فعالهم ، فاتق الله يا أمير المؤمنين ، فإن ببابك نيراناً تأجج لا يعمل فيها بكتاب الله ولا بسنة رسول الله ، وأنت مسئول عما اجترعوا ، وليسوا مسئولين عما اجترحت . فلا تصلح دنياهم إلا بفساد آخرتك .

أما والله لو علم عمالك أنه لا يرضيك إلا العدل لتقرب به إليك من لا يريده . فقال له سلمان بن مجالد . اسكت فقد غممت أمير المؤمنين . فقال عمرو ويلك يا ابن مجالد أما كفاك أنك خزنت نصيحتك عن أمير

المؤمنين حتى أردت أن تحول بينه و بين من ينصحه . اتق الله أمير المؤمنين . فإن هؤلاء قد اتخذوك سلماً إلى شهواتهم . فأنت كالماسك بالقرون وغيرك يحلب . و إن هؤلاء لن يغنوا عنك من الله شيئاً .

ومثل هؤلاء العلماء كثير فى سلفنا الصالح . كانت لهم من الحكام مواقف تعنوا لها الجباه . وتخشع لها القلوب فسعدت بهم الأمة . وكانوا لها كالعافية للأبدان . إليهم المرجع فى تولية الحكام . ومنهم يُستمد النور إذا اشتد الظلام ، وخلف من بعدهم خلف أكلوا الدنيا بالدين . وسكتوا عن ظلم الحكام للرعية . ورأوهم يفعلون المنكرات جهاراً نهاراً فى دولة دينها الإسلام . فلم يحركوا ساكناً ، فهذه حفلات الخلاعة والمجون يرى فيها الكبراء والحكام وتنشر المجلات والصحف صورهم وصور نسائهم الماريات فى حالة يندى لها الجبين ، ولم نجد من كبار العلماء من يغضب لله فينكر على هؤلاء آثامهم . و يستعدى عليهم الأمة لتوقفهم عن غيهم وفسادهم « وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُه » فالأمر بالمعروف فيه صلاح الأمم و إسعادها وفى تركه هلاكها وفناؤها ففى البخارى عن النعمان بن بشير . قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها و بعضهم أسفلها . فكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم . فقالوا لو أنّا خرقنا فى نصيبنا خرقا

ولم نؤذ من فوقنا . فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً . وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً » .

والمراد بالقائم على حدود الله — العالم وولى الأمر — ومعنى استهموا أخذ كل منهم سهمه ونصيبه .

وقد ضرب النبي صلى الله عليه وسلم فى هذا الحديث مثلا للمسلمين فذكر أن الناس صنفان : صنف يميل إلى ارتكاب الموبقات ومخالفة أوامر رب الأرض والسموات استجابة لداعى الشهوة وقد يجهل أن فى ذلك هلاكه وهلاك غيره من الصالحين .

والصنف الثانى العلماء والحكام — وهؤلاء إن تركوا الأولين يفعلون المعاصى ويرتكبون الذنوب ، ولم يأخذوا على أيديهم هلكوا مع الهالكين وأصابتهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين . وفى الحديث عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن أول ما دخل النقص على بنى إسرائيل أنه كان الرجل يلقى الرجل ، فيقول يا هذا اتق الله ودع ماتصنع ، فإنه لايحل لك ، ثم يلقاه من الغد وهو على حاله فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده . ولما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض ، ثم قال : « لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ . كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ » .

ثم قال (كلا والله لتأمرنّ بالمعروف ولتنهُنّ عن المنكر ، ولتأخذنّ على يد الظالم ولتأطرنه على الحق أطراً ولتقصرنه على الحق قصرا ، أو ليضربن الله قلوب بعضكم ببعض ثم ليلعنكم كما لعنهم) رواه الترمذى وأبو داود .

وعن حذيفة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (والذى نفسى بيده لتأمرنّ بالمعروف ولتنهنّ عن المنكر أَوْ لَيُوشِكَنَّ الله أن يبعث عليكم عقابا منه ، ثم تدعونه فلا يستجاب لكم) رواه الترمذى .

وأزال أبو بكر الصديق رضى الله عنه خطأ بعض الناس فى فهم آية من كتاب الله تعالى ، فقد فهموا أن من كان على هدى فلا يضره من ضلّ وغوَى . وفى هذا يقول أبو بكر رضى الله عنه : (يا أيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية : « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ » وإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشكَ أن يعمهم الله بعقاب منه). رواه أبو داود والترمذى والنسائى .

ومعلوم أن الله تعالى شرف الأمة المحمدية وفضلها على جميع الأمم ، وليس ذلك لكثرة صلاتها وصيامها وقوة أبدانها ، وإنما فضلها لقيامها بما به سعادة الوجود ، بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . قال جلّ ثناؤه :

« كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ » فواجب على كل من يقول : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، إنكار المنكر ماد ام يعلم أنه منكر ويعلم دليل نكره ويأمر بالمعروف مادام يعلم أنه معروف كذلك ، وليكن اللين شعاره ، والحسنى طريقته ، فقد قال الله سبحانه وتعالى لموسى وهارون عليهما السلام حين أرسلهما إلى أشقى الخلق فرعون : « فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ »

وقال سبحانه أيضاً : « ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ » .

وليوسع صدره ويملك نفسه ، وليعلم أن من يأمره وينهاه إنما هو أخ له فى الدين ، وأن الشيطان أغواه ، وأن أصل الإيمان مغروس فى قلبه ورب كلمة لينة من نفس مؤمنة صادقة قد ترجعه عن غيّه ، وتعيده إلى رشده ، فيكون له الثواب الجزيل ، والأجر العظيم ، الذى أخبر به النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله : (لأن يهدى الله بك رجلا واحداً خير لك من حمر النعم) . ورُبَّ كلمة نابية ، أو عظة قاسية ؛ تزيد المجرم إجراماً ، والمفسد إفسادا . فعلى الآمر بالمعروف والناهى عن المنكر ، أن يتخير لذلك خير الأساليب وأنسب الأوقات ، وما أحسن ما قالوا : « من نصح أخاه سراً زانه ، ومن نصحه علانية شانه » . وليحتمل

فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ما يصيبه ، وليذكر قول نبى الله لقمان لابنه وهو يعظه : « يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ » .

وإذا كان الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجب على كل مسلم فهو على العلماء والحكام أوجب وألزم وهم المسئولون أولا بين يدى الله تعالى عن ذلك .

فأدركوا يا علماء الإسلام ويا حكام المسلمين أمة محمد صلى الله عليه وسلم . فإن السفينة أوشكت على الغرق .

ومع ذلك لايزال الإيمان فى القلوب ولا يزال فى الدنيا أبرار أطهار . وما يزال الرجاء فى العلماء والحكام موجوداً ومن خير ما يختتم به هذا الكلام قول الله تعالى :

« وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحًا ، وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ » جعلنا الله منهم . وكتب لنا سعادة الدنيا والدين ووفقنا للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله

فهرست

الموضوع	صفحة
إهـــداء الـكتاب	٣
خطبـــة الكتاب	٥
مولد النور	٦
فيلسوف يشهد لنبي الإسلام ودينه	١٢
رسالة الحياة وكيف تؤدى	١٣
رسالة رجل الدين فى الحياة	١٤
رسالة الحاكم فى الحياة	١٥
رسالة المحـكوم فى الحياة	١٦
رسالة التاجر والزارع والصانع	١٧
قصة جريج العابد — الذين تـكلموا فى المهد	١٩
تقوى الله تنجى من المهالك	٢٠
دعاء الأم على ولدها الصالح مستجاب	٢٠
بر الوالدين جهـــاد فى سبيل الله	٢١
قصة الصبي الذى تـكلم فى المهد مع أمه	٢١
النجاة من الهموم والأحزان	٢٣
كلمات تزيل الهموم	٢٤
غفلة القلب تمنع من إجابة الدعاء	٢٥
الدعاء عدو البلاء	٢٦
الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل	٢٧
الدعاء المســتجاب	٢٨
اسم الله الأعظـم	٢٩
قصة أبي أمامة رضى الله عنه	٣٢
الهموم تنغص الحياة	٣٥

obeikandi.com

الموضوع	صفحة
الحزن يذبل زهرة الحياة	٣٧
الصبر يجعل العبد حراً	٣٩
الصبر أقسام	٤١
العين تدمع والقلب يحزن	٤٢
قصة أبي أيوب الكاتب	٤٣
العجز بلاء عظيم	٤٤
الكسل عنوان الخمول والضعة	٤٥
الجبن ضعف في الرجولة	٤٧
كلمة نفيسة للامام محمد عبده	٤٩
البخل وأثره السيء	٥٤
البخيل مكذب بالقرآن الكريم	٥٧
الشح سبب انتشار المبادىء الضارة	٥٨
الدين هم بالليل وذل بالنهار	٦٠
قهر الرجال — مهانة للنفس	٦١
الفرج بعد الشدة	٦٣
جابر عثرات الكرام	٧٣
الشكر	٧٦
الشكر يحرس دوام النعمة	٧٧
قصة الرجل الذي وسع الله عليه	٧٨
السخاء	٨٠
اطلبوا الفضل من الرحماء	٨١
أفضل السخاء	٨٣
أخبار بعض الأسخياء	٨٤
إغاثة الملهوف	٩١
قصر في الجنة لمن عفو	٩٤
قصة عمر بن الخطاب مع رجل أعرابي	٩٦
دعوة مستجابة	٩٨

obeikandi.com

الموضوع	صفحة
نصيحة إلى الفقراء	١٠٠
الذى يأكل من كسب يده من أحب العباد إلى الله	١٠١
حكاية عمر بن سعد مع عمر بن الخطاب	١٠٣
صلة الأرحام	١٠٤
الأقارب كالعقارب	١٠٥
بر الوالدين	١٠٦
الرجل الذى جعل ظهره مطية لأمه	١٠٧
قصة الرجل الذى أخذ مال ولده	١٠٩
إكرام الضيف	١١١
من هو الضيف ؟	١١٢
حكاية الرجل الذى هرب من ضيفه	١١٣
حكاية الرجل الذى أكرم ضيف رسول الله صلى الله عليه وسلم	١١٤
نصيحة رجل بخيل لآخر كريم	١١٥
حق الجار	١١٥
قصة الإمام أبى حنيفة مع جاره	١١٨
رعاية اليتيم	١٢٠
اليتيم أمانة فى يد الوصى	١٢٢
ضيق الصدر والأزمات النفسية	١٢٣
الانتحار أثر من آثار ضيق الصدر	١٢٥
علاج ضيق الصدر	١٢٧
الرضا بالقضاء يشرح النفس ويزيل الهم	١٢٨
المزاح — الممنوع منه	١٣١
كان النبى صلى الله عليه وسلم يمزح ولا يقول إلا حقاً ...	١٣٢
ما اسم امرأة إبليس	١٣٣
المـــزاح الفكه	١٣٤
قصة عبد الملك بن مروان مع بديح	١٣٥
قصة الأصمعى مع تارك الصلاة	١٣٦

obeikandi.com

الموضوع	صفحة
قصة الرشيد وعيسى بن جعفر	١٣٧
قصة الرجل الذى كان يتعبد على مذهب أحمد بن حنبل ...	١٣٨
حكم سماع الغناء	١٣٩
الغناء كلام حسنه حسن	١٤٠
النغمات الموزونة لها تأثير فى الأرواح	١٤١
تأثير الصوت الحسن فى الطيور	١٤٢
أهل الحجاز يبيحون الغناء	١٤٣
قاعدة جليلة فى موضوع السماع	١٤٨
التفاؤل والتشاؤم	١٤٩
فهم بعض العلماء لحديث لا عدوى	١٥١
احترام الأسباب	١٥٣
معنى شؤم الدار والمرأة والفرس	١٥٥
الطيرة شرك	١٥٧
ماذا يقول من يتطير	١٥٨
التفاؤل يقوى العزائم	١٥٩
ليس المقتول بمقربت	١٦٠
خرافات العامة — تعليق التمائم	١٦١
أخت الطفل من الجن	١٦٢
البغلة التى تنزل ليلة عاشوراء	١٦٢
المرأة التى يموت أولادها	١٦٣
اختلاج العين	١٦٤
أضرحة الأولياء	١٦٤
التعرض بعجل الغرب ، وحمل الصيد ، وترك كنس البيت ليلا ، والمرأة العاقر ، كبس المولودة ، علم البركة	١٦٥
المتشيخون	١٦٦
علماؤنا وعلماء الأجانب	١٦٧
الأمر بالمعروف	١٦٨

obeikandl.com

الموضوع	صفحة
العلماء والأمراء	١٦٩
سفيان الثورى والخليفة المهدى	١٧٠
علماء السلف وعلماء الخلف	١٧١
أول ما دخل النقص على بنى إسرائيل	١٧٢
أبو بكر الصديق يزيل خطأ فهم بعض الناس	١٧٣
اللين شعار الداعى إلى الله	١٧٤
إلى علماء وحكام المسلمين	١٧٥

obeikandl.com

obeikandl.com